٢- سَمِيرُ الصَّالِحِين

هَـذَا سَـمِيرُ الصَّـالِحِينَ مُؤَلَّفًـا   يُهْـدِي إلى القُـرَّاء خَـيرَ هَدِيَّـةِ

قَصَـصٌ يُفِيـدُ السَّـامِعينَ سِـياقُها   خُلُقًـا وآدابًـا وأَحْسَـنَ عِـبْرَةِ

أَقْبِـلْ عليهـا واسْـتَفِدْ مِـن لَفْظِهـا   حِكَـمًا وأَحْكَامًـا لِخَـيْرِ شَريعَـةِ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على أفضل المرسلين، سيِّدنا محمَّدٍ الصادق الأمين، ورضي الله عن آله الطاهرين، وأصحابه والتابعين.

وبعد: فهذه بِضْعُ قَصَصٍ دينيَّة فيها عِظاتٌ وعِبَرةٌ، وفيها فوائد وأحكام، وفيها حَضٌّ على الأخلاق الحميدة والآداب العالية، طُرِّزت بآياتٍ من الكتاب الكريم، ووُشِيَت بمعجزاتٍ مِن نبيِّنا العظيم، مَن قرأها زاد إيمانه وقوي يقينه، وأعرض عن المعاصي وأسبابها، وأقبل يطلب الطاعات مِن أبوابها، لما يرى فيها من فضل الله على المتقين الصادقين، ومن غضبه على العاصين الفاسقين.

وسنُتبعها بأمثالها إن شاء الله تعالى، على هذا الأسلوب السهل الذي لا يستعصي على عامَّة القُرَّاء ليعمَّ النفع بها، وتحصل منها الفائدة المرجوَّة.

واللهُ المسئول أن يُلْهِمنا رشدنا، ويوفِّقنا إلى ما فيه رضاه، إنه سميعٌ مُجيبٌ.

١- بناء البيت

عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: جاء إبراهيم عليه السَّلام بأمِّ إسماعيل وبابنها إسماعيل -وهي تُرضعه- حتىٰ وضعها عند البيت، عند دَوْحَةٍ فوق زَمْزَمَ في أعلىٰ المسجد، وليس بمكَّة يومئذٍ أحَدٌ، وليس بها ماءٌ، فوضعها هناك ووَضَعَ عندهما جِرابًا فيه تَـمْرٌ، وسِقاءً فيه ماءٌ، ثُمَّ قَفَّىٰ إبراهيمُ مُنطلِقًا فتبِعَتْهُ أمُّ إسماعيل، فقالت: يا إبراهيمُ أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيسٌ ولا شيءٌ؟ فقالت له ذلك مِرارًا، وهو لا يَلْتفتُ إليها، قالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن[1] لا يُضَيِّعنا، ثُمَّ رجَعَتْ، فانطلق إبراهيمُ عليه السَّلام حتَّىٰ إذا كان عند الثَّنِيَّة حيث لا يَرونهُ، استقبل بوجهه البيتَ، ثُمَّ دعا بهؤلاء الكلمات فرفع يديه فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وجعلت أمُّ إسماعيل تُرْضِعُ إسماعيل وتَشْربُ مِن ذلك الماءِ، حتَّىٰ إذا نَفِدَ ما في السِّقاء عَطِشتْ وعَطِشَ ابنها، وجعلتْ تنظر إليه يتلوَّىٰ -أو قال يَتَلَبَّطُ- فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصَّفا أقرب جبلٍ في الأرض يليها فقامت عليه، ثُمَّ استقبلت الوادي تنظر هل ترىٰ أحدًا؟ فلم ترَ أحدًا، فهَبَطَتْ من الصَّفا حتىٰ إذا بلغت الوادي رفعت طَرَفَ دِرْعِها ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الإنسانِ المَجْهُودِ حتىٰ جاوزت الوادي، ثُمَّ أتت المَرْوَةَ فقامت عليها تنظر هل ترىٰ

(١) «إذن» هنا ناصبة للفعل بعدها.

أحدًا؟ ففعلت ذلك سبع مرَّاتٍ.

قال ابن عبَّاسٍ: قال النبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «**فلذلك سَعَى النَّاسُ بينهما**».

فلما أشرفت علىٰ المَرْوَة سمعت صوتًا فقالت: «صَهٍ»، تريد نفسها، ثُمَّ تسمَّعَتْ فسمعتْ أيضًا، فقالت: «قد أسمَعْتَ إن كان عندك غُوَاثٌ فأغِثْ»، فإذا هي بالمَلَك عند موضع زمزم، فبحث بعَقِبِه -أو قال: بجناحه- حتَّىٰ ظهر الماءُ فجعلتْ تَحُوضُهُ وتقول بيدها هكذا، وجعلتْ تَغْرِفُ الماءَ في سِقائها وهو يفُورُ بعد ما تَغْرِفُ، وفي رواية: بقدر ما تغرف.

قال ابن عبَّاسٍ: قال النبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «**رَحِمَ اللهُ أُمَّ إسماعيل لو تركت زمزم** -أو قال: **لو لم تغرف مِن الماءِ**- **لكانت زمزمُ عَيْنًا مَعِينًا**».

قال: فشَرِبَتْ وأرضَعَتْ ولدها، فقال لها المَلَكُ: لا تخافوا الضَّيْعَةَ، فإنَّ ههنا بيتًا لله يبنيه هذا الغُلامُ وأبوه، وإنَّ الله لا يُضِيعُ أَهْلَهُ.

وكان البيت مُرتفعًا من الأرض كالرَّابية تأتيه السُّيولُ فتأخذ عن يمينه وعن شماله -فكانت كذلك- حتىٰ مرَّت بهم رُفْقَةٌ من جُرْهُم -أو أهل بيتٍ مِن جُرْهُم- مُقبلين من كَدَاءٍ فنزلوا في أسْفَلِ مكَّة فرأوا طائرًا عائفًا فقالوا: إنَّ هذا الطائر ليدور علىٰ ماءٍ لعَهْدُنا بهذا الوادي وما فيه ماءٌ، فأرسلو جَرِيًّا أو جَرِيَّين فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم، فأقبلوا وأمُّ إسماعيل عند الماء فقالوا: أتاذنين لنا أن ننزل عندك؟ فقالت: نعم، ولكن لا حقَّ لكم في الماء، قالوا: نعم.

قال ابن عبَّاسٍ: قال النبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «**فأَلْفَى ذلك أُمَّ إسماعيل وهي تُحِبُّ الأُنْسَ**». فنزلوا فأرسلوا إلىٰ أهلهم فنزلوا معهم، حتَّىٰ إذا

كانوا أهل أبياتٍ، وشَبَّ الغُلامُ وتعلَّم العربيَّة منهم، وأَنْفَسَهُم وأَعْجَبَهُم حين شَبَّ، فلما أدرك زوَّجُوه امرأةً منهم.

وماتت أمُّ إسماعيل فجاء إبراهيم بعدما تزوَّج إسماعيل يُطالع تَرِكَتَهُ فلم يجد إسماعيل فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا -وفي رواية يصيد لنا- ثُمَّ سألها عن عَيْشِهم وهَيْئَتِهم، فقالت: نحن بِشَرٍّ، نحن في ضِيقٍ وشِدَّةٍ وشَكَتْ إليه، قال: فإذا جاء زوجُك، فاقرئي عليه السَّلام وقولي له: يُغَيِّر عَتبَةَ بابه.

فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئًا فقال: هل جاءكم مِن أحدٍ؟ قالت: نعم، جاءنا شيخٌ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته، فسألني كيف عَيْشُنا؟ فأخبرته: أَنَّا في جَهْدٍ وشِدَّةٍ، قال: فهل أوصاك بشيءٍ؟ قالت: نعم، أمرني أن أَقْرأ عليك السَّلام، ويقول: غَيِّر عَتَبَةَ بابك، قال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارقك، الحقِي بأَهْلِكِ، فطلقَّها، وتزوَّج منهم أخرىٰ.

فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثُمَّ أتاهم بعدُ فلم يَجِدْهُ، فدخل علىٰ امرأته فسأل عنه؟ قالت: خرج يبتغي لنا، قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عَيْشِهِم وهَيْئَتِهم، فقالت: نحن بخَيرٍ وسَعَةٍ، وأَثْنَت علىٰ الله، فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللَّحْمُ، قال: فما شرابكم؟ قالت: الماءُ، قال: اللهمَّ بارك لهم في اللَّحْمِ والماءِ.

قال النبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «**ولم يكن لهم يومئذٍ حَبٌّ ولو كان لهم دعا لهم فيه**». قال: «**فهما لا يَخْلُوا عليهما أحدٌ بغير مكَّة إلَّا لم يوافِقاه**».

قال إبراهيم: فإذا جاء زوجُك فاقرئي عليه السَّلام، ومُريه يثبِّت عَتبَة بابه،

فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحدٍ؟ قالت: نعم، أتانا شيخٌ حَسَنُ الهَيْئة، وأثنت عليه، فسألني عنكَ، فأخبرته، فسألني: كيف عَيْشُنا؟ فأخبرته: أنَّا بخيرٍ، قال: فأوصاك بشيءٍ؟ قالت: نعم، يقرأ عليك السَّلام ويأمرك أن تُثبِّت عَتَبَة بابِك، قال: ذاك أبي، وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك.

ثُمَّ لَبِثَ عنهم ما شاء الله، ثُمَّ جاء بعد ذلك وإسماعيل يَبْرِي نَبْلًا له تحت دَوْحَةٍ قريبًا مِن زمزم، فلمَّا رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوَالِدُ بالوَلَدِ والوَلَدُ بالوَالِدِ.

قال: يا إسماعيلُ إنَّ الله أمرني بأمرٍ، قال: فاصْنع ما أمرك ربُّك، فقال: وتُعِينُني؟ قال: وأُعِينك، قال: إنَّ الله أمرني أن أبني بيتًا ههنا، وأشار إلى أَكَمَةٍ مُرتفِعَةٍ على ما حولها -فعند ذلك رفع القواعد من البيت- فجعل إسماعيلُ يأتي بالحِجارة وإبراهيمُ يَبْني حتَّى إذا ارتفع البِناءُ جاء بهذا الحَجَرِ فوضعه له، فقام يبني وإسماعيل يناوله الحِجارة. وهما يقولان ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧] رواه البخاري في "الصحيح".

بيان مفردات

دَوْحَة: بفتح الدال وسكون الواو: شجرةٌ عظيمةٌ.

جِراب: بكسر الجيم: ما يحمل فيه المسافر زاده من الطعام، وهو أيضًا المِزْوَد، بكسر الميم وسكون الزاي وفتح الواو.

سِقاء: بكسر السين: إناء يكون للبن وللماء، ولذلك قيَّده بقوله: فيه ماءٌ، بخلاف القِربة فإنها للماء فقط.

قَفَّى: بتشديد الفاء: ولَّى ورجع.

الثَّنِيَّة: بفتح المثلثة وكسر النون: مكان بمكة.

نَفِد بكسر الفاء وبالدال المهملة: فني وانتهى.

دِرعها: قميصها، وهو بكسر الدال.

المَجْهُود: الجائع، وفعله: جُهِد -بضم الجيم وكسر الهاء- إذا شقَّ عليه الجوع أو التعب.

صَه :-بفتح الصاد-: اسم فعل معناه: اسكت.

غُواث: -بضم الغين المعجمة وفتحها-: إغاثة.

تَحُوضه:-بضم الحاء المهملة-: تجعل حوله حوضًا يمنع سيلانه على الأرض.

الرَّابية والربوة: مثلثة الراء، والرَّباوة -بفتح الراء-: الشيء المرتفع.

كَداء: -بفتح الكاف والمد والتنوين-: مكان بأعلى مكَّة.

جَرِيًّا :-بفتح الجيم وكسر الراء-: رسولًا.

أَلْفَى :-بفتح الفاء-: وجد.

المعـنى

لَمَّا وَلَدتْ هاجرُ إسماعيل -عليهما السَّلام- غارت منها سارة؛ لأنها كانت عقيمًا لم تَلِد[1]، فقالت لإبراهيم: لا يجمعني وإيَّاها بيتٌ، فأمره الله بإسكانها في

---

(١) الغِيرة طبيعةٌ في المرأة، وإن عَلَا قَدْرُها في العِلْم والدِّين. صحَّ عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لقد غِرْتُ من خديجة -رضي الله عنها- وما رأيتها وذلك لكثرة ما كان النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم يَذْكُرها.

الحِجاز لما ترتَّب على ذلك من مصالح كبرى، فسافر بها وبابنها إلى مكَّة فوضعها بجانب المكان الذي بُنيت فيه الكعبة وولَّى راجعًا إلى الشام بعد أن أمرها أن تتَّخِذ لها ولابنها عريشًا يقيهما الحَرَّ والبرد، فتبعته هاجر تسأله كيف يتركها وابنها في بلد ليس به أنيس؟! ولم يلتفت إليها؛ لأنه خشي أن ينظر إلى ابنه الوحيد فتغلب عليه عاطفة الأُبوَّة فيضعف عن تنفيذ ما أمر به، لكنَّها عادت تسأله: آلله أمرك بهذا؟ لأنها أدركت ممَّا عرفته من خُلُق إبراهيم عليه الصَّلاة والسَّلام وشدة عطفه ورحمته أنه لم يكن ليتركها ووحِيده منها في ذلك المكان القَفْر إلَّا بأمر الله تعالى وإذنه.

فلما ردَّ عليها بالإيجاب قالت: إذن لا يُضيِّعنا، وهذا يدل على قوة إيمانها وشدَّة يقينها، ثُمَّ رجعت إلى مكانها عند الدَّوْحة، أمَّا إبراهيم فوصل إلى الثنيَّة وهي طريق العقبة واستقبل البيت يدعو: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾ [إبراهيم: ٣٧] أي: بعض[1] ذريتي؛ لأنه ولد له بعد ذلك إسحاق بالشام.

وقوله: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ [إبراهيم: ٣٧] -أي: تميل

ثُمَّ إنَّ المرأة المُتزوِّجة تحبُّ أن تُنجِبَ أولادًا يملئون بيتها بَهْجَةً وسعادةً، لاسيَّما إذا كان زوجها مثل إبراهيم عليه السَّلام، فغِيرة سارة -مع كونها طبيعية- غير محمودةٍ؛ لأنها كانت تودُّ من صميم قلبها أن تحظى بشرف الإنجاب من الخليل، ورأت أنَّ هاجر حَظِيت بهذا الشرف دونها، ولهذا بشَّرَها الله بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ليُذْهب من نفسها نار الغيرة وعقدة العقم. فمن نفى عنها حكاية الغيرة أخطأ من جهة تكذيبه للحديث الصحيح، ومِن جهة عدم فهمه لطبيعة المرأة.

(١) تعبيره بمن -المفيدة للتبعيض- يشعر بأنه كان عنده إحساس بأن سيولد له غير إسماعيل.

إليهم لحجٍّ بيتك الحرام- دعاءٌ بأن يكثر زوَّار البيت وقُصَّاده، وفي كثرتهم فوائد مادِّيَّة وأدبيَّة تعود على ذريَّته المقيمين به.

مكثت هاجر في مكانها تحت الدَّوْحة تستظل بأغصانها ترضع ولدها وتحوطه بعطفها وحنانها، حتى إذا فني ما عندها من الزاد والماء لم تطِق أن ترى ابنها يتلوَّى من ألم الجوع وقد نضب ما في ثديها من غذاء، فذهبت إلى الصفا تنظر لعلها تجد شيئًا يغذيها أو شخصًا يسعفها، فسعت -أي: مشت مسرعة- بين الصَّفا والمَرْوة شوطًا أو شوطين، فلم ترَ أحدًا فقالت: لو ذهبت فنظرت ما فعل الصبيُّ؟ فوجدته كأنه ينشغ للموت -أي: يشهق شهيق الموت- فلم تقرها نفسها فقالت: لو ذهبت فنظرت لعلي أحس أحدًا، فذهبت إلى الصَّفا فنظرت ونظرت فلم تحس أحدًا فرفعت طرف قميصها ليساعدها على الإسراع في المشي وسعت بين الصَّفا والمروة وهي تنظر وتتسمَّع فسمعت كأن صوتًا يناديها فلم تنتبه، فقالت لنفسها: صَهٍ -أي: اسكت-، مبالغة في الاهتمام ولكنها لم تسمع ثانيةً، ثُمَّ عادت إلى ابنها فسمعت ذلك الصوت أيضًا، فقالت لصاحب الصوت الذي لم تره: لقد أسمعت فإن كان عندك غوث فأغث، فظهر لها الملك -وهو جبريل عليه السَّلام كما يثبت في رواية للبخاري أيضًا- فبحث برجله أو بجناحه الأرض فظهر الماء، فجعلت تغرف منه.

وهو ماء زمزم، وقد جعله اللهُ طَعَامُ طُعْمٍ وشِفَاءُ سُقْمٍ كما في "الصحيحين"[1]، ولذلك كفى هاجر من الطعام، ثُمَّ قال لها جبريل: لا تخافوا

---

(١) وفي حديثٍ صحيح: «ماءُ زَمْزَمَ لِما شُرِبَ له، إنْ شَرِبْتَه تَسْتَشِفي شَفَاكَ اللهُ، وإنْ شَرِبْتَهُ لقَطْعِ ظَمِأكَ قَطَعَهُ اللهُ».

الضَّيْعَة فإنَّ في هذا المكان بيتًا لله -هي الكعبة- يبنيه هذا الرَّضِيع وأبوه إبراهيم عليهما السَّلام، وهما من أهل الله يَبْنيان بيتَ الله، والله لا يُضيِّع أهله.

لَّما ترك إبراهيم هاجر وإسماعيل عند البيت، كان يزورهما الفَيْنَة بعد الفَيْنَة، ويتعاهدهما بما يحتاجان إليه من كِساءٍ ونحوه.

وفي إحدى هذه الزيارات قال لابنه إسماعيل -وكان عمره اثنتي عشرة سنة تقريبًا-: يا بني خذ المُدْيَة والحبل، وانطلق بنا إلى هذا الشِّعْب لحاجةٍ لنا فيه، فذهبا وتعرَّض إبليس لإبراهيم فسأله: أين تريد أيها الشيخ؟ فأجابه: إلى هذا الجبل لحاجةٍ لي فيه، قال إبليس: بل أنت تريد ذبح ابنك لأنك تزعم أنَّ الله أمرك بذلك، قال إبراهيم: اذهب يا عدوَّ الله فوالله لأَمْضِينَّ لأمر الله، ورَجَمَه بسبع حصياتٍ.

فيئس منه إبليس وذهب إلى إسماعيل وسأله: هل تدري أين يذهب بك أبوك؟ قال لحاجةٍ في هذا الشِّعْب. قال إبليس: إنه يريد أن يذبحك. قال إسماعيل: ولِـمَ يذبحني؟ قال إبليس: يزعم أنَّ الله أمره بذلك. قال إسماعيل: فليفعل ما أمره به الله، ورماه بسبع حصياتٍ.

فتركه وذهب إلى هاجر وسألها: أين ذهب إبراهيم بابنه؟ قالت: ذهب به لحاجةٍ. قال: إنه ذهب به ليذبحه. قالت: ولِـمَ يذبحه وهو ابنه الوحيد وأحب الناس إليه؟! قال: يزعم أنَّ الله أمره بذلك. قالت: فليفعل ما أمره الله به، ورمته بسبع حصياتٍ أيضًا. فصار رمي الجِمار من شعائر الحجِّ.

وصل إبراهيم إلى الجبل وقال لإسماعيل: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ [الصافات: ١٠٢].

ورؤيا الأنبياء وحيٌ؛ لأن النبيَّ تنام عيناه وقلبه في يقظةٍ لا يغفل عن الله لحظةً. فأجابه إسماعيل بقلبٍ ثابتٍ وإيمانٍ راسخٍ: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢][(١)] يا أبت شد رباطي لا يصبك مني شيءٌ، وأحِدَّ شَفرَتك حتَّىٰ تُجْهِز علي فتريحني، وإذا أضجعتني لتذبحني فكبَّني علىٰ وجهي ولا تُضجعني لجنبي؛ فإنك إذا رأيت وجهي أدركتك رأفةٌ حالت بينك وبين تنفيذ ما أمرك الله به.

ففعل ما اقترحه عليه ابنه، وإذا بجبريل عليه السَّلام يناديه: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ [الصافات: ١٠٥]، وأتاه بكبشٍ عظيمٍ -هو الكبش الذي قربه هابيل- فذبحه فداء عن ابنه وصارت الضحية شعيرة من شعائر الإسلام.

﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ﴾ صرعه، ﴿لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٣ - ١٠٧][(٢)].

---

(١) هذا دليلٌ علىٰ أنَّ رؤيا النبيِّ وحيٌ من الله تعالىٰ، وقول الشيخ عبدالوهاب النجَّار في هذه القصة: «كانت المنامات عند الصالحين من عباد الله بمثابة الوحي والأمر المباشر» غير صحيح بالنسبة للأنبياء فإن رؤياهم وحيٌ كما تقرَّر في الأصول.

(٢) زَعَمَ اليهودُ أنَّ الذَّبيح إسحاق عليه السَّلام، وتبعهم النصارىٰ تقليدًا بغير دليلٍ إلَّا ما جاء في التوراة وهو من تحريفاتهم: ففي الإصحاح الثاني والعشرين: «وحدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن إبراهام، فقال له: يا إبراهام، فقال: هأنذا، فقال الرب: خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحاق واذهب إلىٰ أرض الموريا...» إلخ. فزيادة إسحاق، من تحريف اليهود جزمًا؛ لأن إسحاق لم يكن وحيد إبراهيم قطُّ وإنما ولد بعد

واختلفت العلماء: هل أَمَرَّ الشفرة على ابنه ولم تقطع؟ أو لم يُمرها؟

ظاهر الآية يفيد الثاني، وفي الآية دليلٌ على جواز نسخ الفرض قبل فعله.

ثُمَّ رجع إبراهيم إلى الشام، ومكثت هاجر ترعى إسماعيل وتحوطه بعنايتها حتى مرت بهم جماعةٌ من جُرْهُم ونزلوا في طريق أسفل مكَّة فرأوا طيرًا عائفًا -أي: طالبًا للماء- فقالوا: إنَّ هذا الطير يدور على الماء وعهدنا بهذا الوادي ليس فيه ماءٌ، وبعثوا رسولًا ينظر هل يجد ماءً؟ فأشرف على أبي قبيس فرأى زمزم تفور ماء وعندها خيمة هاجر فرجع وأخبرهم، فجاءوا إلى هاجر واستأذنوها أن يقعدوا معها -وهي كانت راغبة فيمن يقعد عندها يدفع عنها وَحْشَة الوحدة ويُنسيها همَّ الغربة- فرحَّبت بهم وأذنت لهم بشرط: ألَّا يكون لهم حقٌّ في امتلاك زمزم؛ لأنها بئر أنشأها الله لها ولابنها.

إسماعيل الذي ينطبق عليه: أنه ابنه الوحيد عند الذبح، ووهم بعض علماء المسلمين فقالوا: الذبيح إسحاق. سرى عليهم هذا الوهم من مسلمة أهل الكتاب، على أنَّ من اليهود -والذين أسلموا حقيقة- من اعترف بأن التوراة مصرح فيها بذكر إسماعيل.
روى محمد بن كعب القرظي: أنَّ عمر بن عبدالعزيز أرسل إلى رجلٍ من اليهود أسلم وحسن إسلامه وكان من علماء اليهود يسأله عن ذلك وأنا عنده، فقال له عمر: أي بَنِي إبراهيم هو الذبيح؟ قال الرجل: هو إسماعيل، والله يا أمير المؤمنين إنَّ اليهود لتعلم ذلك ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أبوكم الذي أمر الله بذبحه لما فيه من الفضل لكم.
قلت: وما هذا بأوَّل تحريفاتهم ولا آخِرها فقد سجَّل الله عليهم في كتابه: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣]، ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾[المائدة: ٤١].

فنزلوا عندها وبعثوا إلىٰ أهلهم فجاءوا ونزلوا معهم حتىٰ صاروا عدَّة أبياتٍ -وكانوا من العرب العاربة وهم العرب البائدة- فتعلم إسماعيل منهم العربية الفُصْحَىٰ وشَبَّ فيهم وأَنْفَسَهُم أي: صار نفيسًا، غلبهم في النفاسة بقوة جسمه ومتانة خلقه فأعجبهم ذلك منه فزوَّجوه بنتًا منهم.

ثُمَّ ماتت هاجر عليها السَّلام وجاء إبراهيم عليه الصَّلاة والسَّلام ينظر ما تركت هاجر من ميراثٍ، وسأل امرأة إسماعيل عن زوجها، حيث لم يجده في البيت، وكان يخرج للصيد ويتعيَّش منه، فقالت: خرج يبتغي لنا القوت بصيده، فسألها عن عَيْشِهم وحالهم، فأرت ضجرها من المعيشة وشكت الضيق، وذلك يدل علىٰ ضعف إيمانها وعدم قناعتها، يضاف إلىٰ ذلك أنها لم تدعه إلىٰ دخول البيت ولم تُقدِّم له قِرىٰ الضِّيف فكانت امرأة سوءٍ، فلذلك قال لها: إذا جاء زوجك فاقرئي عليه السَّلام وقولي له: يُغيِّر عتبة بابه، كناية عنها لأنها لا تصلح أن تكون زوجًا لإسماعيل الرسول الكريم، وقد نفَّذ رغبة أبيه فطلَّقها.

ويأتي هنا سؤالٌ وهو: لِـمَ يمكث إبراهيم ينتظر ابنه حتىٰ يعود من الصيد وكيف طابت نفسه بالسَّفَر قبل أن يراه؟

أشكل هذا علىٰ بعض المعاصرين فادَّعىٰ أنَّ الحديث موضوعٌ [(١)].

وأجاب بعض المتقدِّمين: بأنَّ إبراهيم استأذن سارة في السَّفَر إلىٰ هاجر فأذنت له بشرط ألَّا ينزل ولا يقعد. وهذا جوابٌ بعيدٌ، بل باطلٌ.

---

(١) ادِّعاء وضع الحديث لمجرَّد إشكالٍ فيه دليلٌ علىٰ قِلَّة العِلْم وضيق الأُفُق.

والذي يظهر في الجواب: أنَّ إبراهيم عليه الصَّلاة والسَّلام كان في مقام التوكُّل يسلك الأسباب من غير أن يعتمد عليها أو ينتظر نتائجها، بل يعتمد على الله تعالى وينتظر ما يأتي من قِبله، فهو حين شدَّ رحله إلى مكَّة سلك السبيل المعتاد لرؤية ابنه، لكنه حين وجده في صيده أدرك أنَّ الله لم يرد لقاءهما في تلك المرَّة، فاكتفى بتوجيه النصيحة إليه بتطليق امرأته التي لا تناسب حاله -ومن الأمثال المشهورة: المقابلة نصيب- وكذلك جاء للمرة الثانية فلم يجده ووجد زوجه الجديدة. فسألها عنه، فقالت: ذهب يصيد، ثُمَّ قالت له: ألا تنزل فتطعم وتشرب؟ قال: ما طعامكم؟ قالت: اللَّحْمُ، قال وما شرابكم؟ قالت: شرابنا الماء، فدعا لهم بالبركة في طعامهم وشرابهم.

ولو كان عندهم حَبٌّ من قمحٍ أو ذرةٍ لدعا لهم بالبركة فيه وبقيت بركة دعوته إلى اليوم وإلى قيام الساعة، فلا يمكن لشخص بغير مكة أن يعيش على اللَّحم والماء وحدهما.

ثُمَّ قال لها: إذا جاء زوجك فاقرئي عليه السَّلام، وقولي له: يمسك عتبة بابه.

يكني عنها أي: لا يفارقها؛ لأنها قوية الإيمان، شكرت نعمة الله. وكريمة النفس، دعت ضيفها الكريم إلى تناول الطعام والشراب، فاستحقَّت أن يمسكها إسماعيل. فهي المرأة الصالحة التي تساعده ويجد الراحة إذا آوى إليها في منزله.

ولم ينتظر إبراهيم ابنه في هذه المرة أيضًا لأنه أدرك أنَّ اللقاء لم يُقَدَّر بعد.

ومقام التوكُّل والتسليم عزيزٌ غريبٌ تبدو تصرُّفات صاحبه عند عامَّة النَّاسِ

غير مفهومةٍ، لكن الذَّائق له والمتلبِّس به لا يشعر أنَّ شيئًا يصدر منه غير مفهومٍ أو غير عاديٍّ؛ لأن اعتماده على الله وتسليم القيادة إليه أراح قلبه وأغناه عن تلمُّس المناسبات؛ لأنَّ الله إذا أراد شيئًا خَلَقَ مناسبته وهيَّأ لها الظروف الملائمة.

ثُمَّ عاد إبراهيم في زيارةٍ ثالثة فوجد إسماعيل قاعدًا تحت شجرةٍ كبيرةٍ - قريبًا من زمزم- يَبْري نبلًا له من النِّبال التي يصيد بها، فلما رآه قام إليه مُستقبلًا، فتعانقا وقبَّله والده قُبْلة العطف والرحمة كما قَبَّل هو والده قبلة الإجلال والهيبة، وبعد انتهاء المقابلة، وسؤال كل منهما الآخَر عن صحَّته وحاله قال إبراهيم: يا إسماعيل إنَّ الله أمرني بأمرٍ. قال إسماعيل: فاصنع ما أمرك به ربُّك. فقال إبراهيم مُستفهمًا: وتُعينُني؟ فإني أحتاج إلى معينٍ يعاونني فيه، قال إسماعيل: وأُعينك عليه. أطلب رضاك وثواب الله، قال إبراهيم: إنَّ الله أمرني أن أبني ههنا بيتًا، وأشار إلى الرَّابية المرتفعة بجانب زمزم.

فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة ويناولها لإبراهيم، وهو يبني. حتى إذا ارتفع البناء أتاه بالحجر الذي هو مقام إبراهيم فوقف عليه وأكمل بناء الكعبة، وهما يقولان أثناء بنائهما: يا ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآ﴾ هذا العمل الذي هو بناء أول بيتٍ يقام لك في الأرض ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لدعائنا وأقوالنا ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بإخلاصنا في طاعتك وسعينا في مرضاتك.

ولم يستعينا في البناء بالسُّكَّان الموجودين هناك من جُرْهُم والعمالقة؛ لأنهما أحبَّا أن يقوما بهذه العبادة وحدهما مبالغةً في طلب رضا الله وزيادةً في التقرُّب إليه، وقد يكون بعض الناس قد ساعدوهما بعض المساعدة في قطع بعض

الأحجار ومناولة بعض الطين.

وكان في أسباب اختيار إبراهيم لهذه المهمَّة مع سابق علم الله وإرادته: أنَّ إبراهيم رأىٰ في بلده حران معبدًا للأصنام التي كانت تعبد من دون الله، ورأىٰ في مصر أيضًا معابد يعبدون فيها الآلهة ويقرِّبون لها القرابين فآلمه كثيرًا أن يكون للآلهة أماكن تعبد فيها مع أنها لا تنفع ولا تضر، ولا يكون لله الواحد القهَّار في أرضه بيتٌ يُعبَد فيه.

فعهد الله إليه ببناء هذا البيت الذي يُفرد فيه بالعبادة ويُنادىٰ فيه بتوحيده.

ما يؤخذ من القصة

يؤخذ منها أمورٌ:

١ – **منها**: أنَّ إبراهيم –عليه الصَّلاة والسَّلام– كان شديد الثِّقة بالله، قويَّ الاعتماد عليه؛ حيث ترك فِلْذَة كَبِدِه ووحيده الذي رُزِق به بعد دعاءٍ وتوجُّهٍ لله في مكانٍ قَفْرٍ لا زَرْعَ فيه ولا ضَرْعَ، ولا جَلِيسَ ولا أَنيس؛ تنفيذًا لأمر الله وإسراعًا في طاعته، وله مواقف كثيرة تؤكِّد شدَّة ثقته بالله واستسلامه إليه في كلِّ أموره من أجل ذلك اتخذه خليلًا.

٢ – **ومنها**: أنَّ مَن وثق بالله واعتمد عليه حفظ أهله وأراه فيهم ما يحب، ألا ترىٰ كيف أخرج الماء لهاجر؟ وأتىٰ بناسٍ يسكنون معها يؤنسون وحشتها ويعلِّمون ابنها العربية الفصحَىٰ الخالصة من لهجات خالطت لغة أبيه إبراهيم عليه السَّلام.

٣ – ومنها: أنَّ السَّعْيَ لا ينافي التوكُّل: فإنَّ هاجر –عليها السَّلام– لَمَّا سألت

إبراهيم: آلله أمرك أن تتركنا بهذا المكان القَفْر؟ وقال لها: نعم، قالت: إذن لا يضيِّعنا. وتوكَّلت على الله ووثقت به، ومع ذلك لما فني منها الزاد والماء قامت إلى الصَّفا والمروة تسعى بينهما تحاول أن تجد أحدًا يُسعفها، ولم يخدش ذلك توكَّلها، بل جعل الله مكان سعيها من شعائر الحجِّ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨].

٤- ومنها: أنَّ الله تعالى كرَّم هاجر بجعل مكان سعيها من شعائر الله بإضافته إلى ذاته المقدسَّة، وهو تكريم للمرأة الصالحة لم تنله في دينٍ غير الإسلام(١).

٥- ومنها: أنَّ الإنسان إذا سُئل عن حاله فلا يظهر الشَّكْوَى والتضجُّر،

---

(١) قرأت في جريدة الأخبار الصادرة يوم (٨/ ٩/ ١٩٦٧): أنَّ محاميًا ألمانيًّا اسمه كريستوف ييجر كتب رسالةً للدكتوراه عن مركز المرأة في الأحوال الشخصية عند المسلمين، تكلَّم فيها عن المساواة بين الرجل والمرأة في القرآن وبيَّن أنَّ الشريعة الإسلامية هي الشريعة الأولى التي أعطت للمرأة حقوقها كاملةً، ومنحتها مزيدًا من الحرية والاحترام، وذكر أنَّ احترام المرأة في الغرب يقوم على إعطائها كافَّة الحريَّات بحيث يمكنها أن تفعل ما تشاء ما دامت تؤدِّي عملها، أمَّا احترام المرأة في الشريعة الإسلامية فيقوم على طريق حمايتها ضد المساوئ والخطيئة، وتوجيهها للعمل الصالح. ونادى المحامي المذكور بضرورة تطبيق مبادىء الشريعة الإسلامية في دول العالم؛ لأنها الشريعة الوحيدة التي تقدِّم للمرأة كافَّة الحقوق والحريَّات، وتمنحها مزيدًا من الاحترام. وذكرت الأخبار أنَّ ذلك المحامي سيقدِّم رسالته لتناقش في شهر نوفمبر (١٩٦٧) في جامعة توييننج جنوب شتوتجارت بألمانيا الغربية.

بل ينبغي له أن يحمد الله ويثني عليه ويظهر رضاه بحاله، ألا ترىٰ إلىٰ امرأة إسماعيل الأولىٰ حين شكت الضيق والشدَّة أمره إبراهيم بمفارقتها، وامرأته الأخيرة حين أثنت علىٰ الله وأظهرت رضاها بحالها أمره بإمساكها.

٦- ومنها: أنَّ الأب الصالح إذا أمر ابنه بطلاق امرأته نفَّذ أمره، فقد طلَّق إسماعيل امرأته الأولىٰ تنفيذًا لأمر أبيه(١).

٧- ومنها: أن المرأة الصادقة يعمل بروايتها، فقد طلق إسماعيل امرأته لما روته عن أبيه.

٨- ومنها: أن الشخص لو حفر بئرًا في أرض غير مملوكة لأحد كانت ملكًا له، فإن الناس الذين استأذنوا هاجر في النزول عندها شرطت عليهم ألا حق لهم في امتلاك الماء.

٩- ومنها: أن المَلَك قد يظهر للشخص الصالح ويكلمه، فقد ظهر جبريل عليه السلام لهاجر وكلمها مبشرًا لها بأن ابنها سيبني البيت مع أبيه وتلك كرامة أكرمها الله بها، ولم يُصِب من قال أنها كانت نبية.

١٠- ومنها: أن الشخص إذا قدَّم طاعة الله علىٰ حظ نفسه جعل الله البركة في أفعاله وما تلمسه بعض أعضائه، فإن إبراهيم لما ترك ابنه في مكان قفر امتثالا لأمر الله جعل البيت الذي بناه مباركًا فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦] وجعل الحجر الذي قام

---

(١) وأمر عمر ابنه عبدالله -رضي الله عنهما- بطلاق امرأته فلم يفعل، فشكاه إلىٰ النبيِّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فأمره بفراقها.

عليه وهو يبني البيت مكانًا يصلي عنده فقال تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥].

مناقشات في القصة

أشكلت أشياء في هذه القصة على بعض المعاصرين ونحن نجيب عنها:

١- يفيد هذا الحديث أنَّ هاجر ماتت بعد زواج إسماعيل وجاء إبراهيم يطالع تركته منها، قال بعض المعاصرين: «والمشهور أنَّ هاجر ماتت بعد سارة، وأنها حضرت بناء الكعبة، وأنها كانت على قيد الحياة لما ذهب إبراهيم إلى جبل ثبير بإسماعيل ليذبحه بعد النفر من عرفات».

هذا الكلام فيه تخليطٌ: فبقاء هاجر بعد سارة لم يستند فيه إلَّا لما ذكره بعض الإخباريين، وذلك لا يصح أن يرد به ما يثبت في "صحيح البخاري"[١] ودعواه أنها حضرت بناء البيت غير صحيح.

وقوله: وأنها كانت على قيد الحياة لَمَّا ذهب إبراهيم إلى جبل ثبير بإسماعيل ليذبحه بعد النفر من عرفات، غير مُحَرَّرٍ.

فإنَّ حادثة الذَّبح وقعت لإسماعيل وهو صبيٌّ لم يتجاوز الثانية عشر من عمره، وبناء البيت وقع بعد ذلك حين صار إسماعيل رجلًا يقدر على حمل الحجارة ومشاقِّ البناء، والذي يرى الحجر الذي هو مقام إبراهيم يتأكد أنه لا يقدر على حمله صبيٌّ في الثانية عشر من العمر، ومن الدليل على ذلك أيضًا دعاء إبراهيم وإسماعيل وهما يبنيان: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً

(١) بل ذكر معظم الإخباريين أيضًا أن هاجر توفيت قبل سارة.

﴿مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] فإسماعيل لم يدع بهذا إلَّا وهو رجلٌ متزوِّجٌ يأمل أن تكون له ذرية صالحة.

٢- يفيد الحديث أنَّ إبراهيم لما جاء لزيارة إسماعيل بمكَّة ووجده في الصيد لم ينتظره وقفل راجعًا إلى الشام. وقد أجبنا عنه فيما مرَّ.

٣- جاء في الحديث: وتعلَّم منهم العربيَّة، وهذا صحيحٌ، فإنَّ إسماعيل تربَّى في مكَّة مع أُمِّه المصرية ولغتها لم تكن عربيةً خالصةً بل فيها دخيلٌ كثيرٌ من لهجة القبط القديمة، فوجود جُرْهُم أفاد إسماعيل في تعلُّم العربية الفُصْحَى الخالية من الدخيل.

العبـــرة

العِبْرة مِن هذه القِصَّة أنَّ الله تعالى يمتحن خواصَّ عباده المُقَرَّبين امتحاناتٍ شديدةً قاسيةً؛ ليكثر أجرهم عنده ويزداد قربهم منه ويُربِّيهم على خشونة العيش، وبعد عن التَّرَف والتنعُّم، لتنمو رجولتهم وتقوى نفوسهم، وليعلموا أنَّ نعيم الدنيا زائلٌ فلا يلتفتون إليه، وأنَّ زخرفها حائلٌ فينصرفون عنه، ثُمَّ جعلهم بما امتحنهم به وربَّاهم عليه قدوةً للمؤمنين ومنارًا للسَّالكين.

فيا أيها المؤمن: لا تضعف إن أصابتك شدَّةٌ، ولا تضجر إن مسَّتك مصيبةٌ، بل اعتصم بإيمانك واثبت على يقينك واتل قول الله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢] واجعل قدوتك إبراهيم الذي امتُحِن في نفسه وفي ولده فزاد إيمانه وعَظُم يقينه.

ويا أيها السَّالك إلى الله الطالب لرضاه: شَمِّر عن ساق الجِدِّ واترك الرَّاحَةَ

والتنعُّم جانبًا، وقدِّم نَفْسَك قُرْبانًا لله تعالىٰ كما قدَّمها إسماعيل قبلك، اذبح شهواتها بمُدْية عَزْمِك وأجْهِزْ علىٰ طَمَعِها وتطلُّعها بسيف قناعتك، ثُمَّ اذهب إلىٰ الله تعالىٰ بصِدْقٍ وإخلاصٍ وقل: إني ذاهب إلىٰ ربِّي سيهدين، يكن معك بالتأييد والتمكين: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

أوائل إبراهيم

أخرج البيهقيُّ من طريق سعيد بن المسيِّب، عن أبي هريرة قال: «كان إبراهيم عليه السَّلام أوَّل من اخْتَتَنَ، وأوَّل من رأىٰ الشَّيْبَ، وأوَّل مَن جَزَّ شاربه، وأوَّل مَن جَزَّ أظافيره، وأوَّل من استحَدَّ». إسناده صحيحٌ.

وروىٰ ابن عديٍّ في "الكامل" والبيهقيُّ في "الشعب"، أيضًا عن أبي هريرة، مرفوعًا: «**إنَّ إبراهيم عليه السَّلام أوَّل مَن أضَافَ الضَّيْفَ، وأوَّل مَن قَصَّ الشَّارِبَ، وأوَّل مَن رأى الشَّيْبَ، وأوَّل مَن قَصَّ الأظَافِر، وأوَّل مَن اخْتَتَنَ بقدوم**[1]». إسناده ضعيفٌ.

وفي "مستدرك الحاكم" و"سنن البيهقي" بإسناد صحيحٍ عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ﴾ [البقرة: ١٢٤] قال: «ابتلاه الله بالطهارة، خمسٌ في الرأس وخمسٌ في الجسد، ففي الرأس: قَصُّ الشَّارِبِ، والمَضْمَضَةُ، والاسْتِنْشَاقُ، والسِّواك، وفَرْقُ الرَّأس. وفي الجسد:

(١) الآلة التي يُنحت بها، اختتن بها إبراهيم إسراعًا في تنفيذ الأمر. وقيل: القدوم اسم المكان الذي اختتن فيه.

تَقْلِيمُ الأظَافِرِ، وحَلْقُ العَانَةِ، والخِتَانُ، ونَتْفُ الإبِطِ، وغَسْلُ مكان الغائِطِ والبولِ بالماء».

وروى وكيعٌ، عن جرير بن حازمٍ، عن واصل مولى عتيبة قال: «أوحى الله تعالى إلى إبراهيم عليه السَّلام: يا إبراهيم إنَّك أكْرَمُ أهل الأرض عليَّ، فإذا سَجَدْتَ فلا تَرَ الأرضُ عَوْرَتَك فاتخذ السَّراويل».

(لطيفة): أوْحَى الله تعالى إلى إبراهيم: يا إبراهيم إنَّك لما أسلمتَ مالك للضِّيفان، وابنك للقُرْبان، ونَفْسَك إلى النيران، وقلبك إلى الرحمن، اتخذناك خليلًا.

(تنبيه): قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ [مريم: ٥٤] لأنه وعد أباه بالصبر على الذبح ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢] فوفَّى بوعده ولم يجزع ولم يضطرب، حتى قال له أبوه: نعم الولد أنت يا بني، تُعين على طاعة الله. ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤]: أرسله الله إلى جُرْهُم المُقيمين معه بمكة، وذهب إلى تهامة يبلغ رسالته إلى بقيَّة جُرْهُم والعمالقة. ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ﴾ [مريم: ٥٥]:قومه، وسُمُّو أهله لأنه أصهر فيهم.﴿بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ [مريم: ٥٥] هما أهم أركان الدِّين، فالصَّلاة: تصل العبد بربِّه وتنفحه بإمدادات إلهيَّة، والزكاة تصل المسلم الغني بأخيه الفقير وتربط بينهما برباط الأخوَّة والمحبَّة حتى كأنهما روحان يضمهما الجسد. ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٥]؛ لأنه قَدَّم نَفْسَه في صغره وأدَّى الرِّسالة كما أمر بها في كبره، وفيما بين ذلك بنى بيتًا لعبادته وتوحيده، وأطعم نَفْسَه وأهله من صَيْدِه الحلال.

وممَّا أكرمه الله به أن سخَّر له الخيل فذلَّلها للركوب، وكانت وحشيَّةً لم يركبها أحدٌ قبله ولهذا كُني بأبي السِّباع[١].

(تنبيه آخر): تقدَّم أنَّ إسماعيل عليه السَّلام تعلَّم اللغة العربيَّة مِن جُرْهُم فهو أبو العرب المُسْتَعْرِبة. ذلك أنَّ العرب ثلاثة أنواعٍ:

الأول: العرب العاربة: وهم الخُلَّص، وهم تسع قبائل ومِن ولد أرم بن سام بن نوحٍ، وهي: عاد وثمود وأميم وعبيل وطسم وجديس وعمليق وجُرْهُم ووبار.

الثاني: العرب المُسْتَعْرِبة: وهم الذين ليسوا بخُلَّصٍ، وهم بنوا إسماعيل من مَعَدِّ بن عَدْنان بن أُدَد.

الثالث: العرب المتعربة: وليسوا بخُلَّصٍ أيضًا، وهم بنو قحطان باليمن تعلموا العربية من بني إسماعيل الذين نزلوا هناك.

قال عبدالملك بن حبيب الأندلسي: كان اللسان الأول الذي نزل به آدم من الجنَّة عربيًّا إلى أن بعد العهد وطال وحرف وصار سريانيًّا، وهو منسوبٌ إلى أرض سورىٰ أو سوريانة وهي أرض الجزيرة، بها كان نوح عليه السَّلام وقومه

---

(١) توفي بمكة ودفن في الحِجْر بجانب والدته، وفي ذلك المكان قبور جماعة من الأنبياء. قال الثعلبي: أخبرنا أبو عمرو أحمد بن أبي الفراتي: أنبأنا المغيرة بن الوليد بمكَّة في المسجد الحرام بين الركن والمقام: أنبأنا الفضل بن يحيىٰ الجَنَدي -بفتح الجيم والنون-: أنبأنا يونس بن محمد: أنبأنا يزيد بن أبي حكيم، عن سفيان الثوري، عن عطاء بن السائب، عن عبدالرحمن بن سابط أنه قال: بين الركن والمقام وزمزم قبور تسعة وتسعين نبيًّا، وإنَّ قبر هودٍ وصالحٍ وشعيبٍ وإسماعيلَ عليهم السَّلام في تلك البقعة.

قبل الغَرَق وكان يشاكل اللسان العربيِّ إلَّا أنه محرَّفٌ، وهو كان لسان جميع من في سفينة نوحٍ إلَّا رجلًا واحدًا يقال له: جُرْهُم، فكان لسانه لسان العربي الأول، فلما خرجوا من السفينة تزوَّج أرم بن سام بعض بناته، فمنهم صار اللسان العربي في ولده عوص أبي عاد وعبيل وجائر أبي ثمود وجديس. وسميت عاد باسم جُرْهُم؛ لأنه جدهم من الأم، وبقي اللسان السرياني في ولد أرفخشذ بن سام إلىٰ أن وصل إلىٰ يشجب بن قحطان من ذريته وكان باليمن، فنزل هناك بنو إسماعيل فتعلَّم منهم بنو القحطان اللسان العربي» .اهـ

وروىٰ الحاكم في "المستدرك" والبيهقيُّ في "الشعب" عن بريدة رضي الله عنه في قوله تعالىٰ: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥] قال: بلسان جرهم.

وروىٰ الشيرازيُّ في "الألقاب": أخبرنا أحمد بن سعيد المعدانيُّ: أنبأنا محمد بن أحمد بن إسحاق الماسي: حدَّثنا محمد بن جابرٍ: حدَّثنا أبو يوسف يعقوب بن السِّكِّيت قال: حدَّثني الأثرم، عن أبي عبيدة: حدَّثنا مسمع بن عبدالملك، عن محمد بن علي بن الحسين، عن آبائه، عن النبيِّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال: «**أوَّل مَن فَتَقَ لِسانه بالعربيَّة المتينة إسماعيل عليه السَّلام وهو ابن أربع عشرة سنة**».

٢- حكم صائب

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنه سمع رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال: «**كانت امرأتان معهما ابناهما: جاء الذِّئبُ فذَهَبَ بابن إحْدَاهما، فقالت لصاحبتها: إنما ذهب بابنك، وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك، فتحاكمتا إلى داود عليه السَّلام فأخبرتاه، فقضى به للكُبْرَى، فخرجتا على سليمان عليه السَّلام فأخبرتاه، فقال: ائتوني بالسِّكِّين أَشُقُّه بينهما، فقالت الصغرى: لا تفعل رحمك الله هو ابنها، فقضى به للصُّغْرَى**». رواه الشيخان.

مفردات الحديث واضحةٌ.

المعنى

كانت امرأتان من بني إسرائيل تجمعهما معرفة وصداقة، فبينما هما جالستان معهما ابناهما إذ فاجأهما الذئب فخطف ابن إحداهما وذهب به، ولمَّا أفاقتا من دهشتهما ورجعتا إلىٰ وَعْيهما تنازعتا في الولد الذي تركه الذئب، ادَّعَتْ كلُّ واحدةٍ منهما أنه ابنها وإحداهما تعلم أنه ليس ولدها، لكنها تريد أن تأخذه لتطفئ به نار الحُرْقة التي في صدرها لفقد ولدها، وأصرَّت كلتاهما علىٰ رأيهما، فلم يكن بد من التحاكم إلىٰ القاضي ليفصل النزاع بينهما، فذهبتا إلىٰ داود النبيِّ والخليفة، وقصَّتا عليه قصَّتهما، ويظهر أنَّ الكبرىٰ منهما كانت قد تردَّدت علىٰ المحكمة قبل هذه القضيَّة وعرفت أساليب المحاكمة، فأظهرت من اللباقة في الكلام وأبدت من الحزن المُصْطَنَع ما حمل داود علىٰ الحكم بأن الولد لها؛ لأنه رأىٰ أنَّ الحقَّ معها، فظفرت بالولد وخرجت الصُّغْرَىٰ خائبة.

وكان داود يحضر ابنه سليمان في مجالس الحكم ليتمرَّن علىٰ شئون الخِلافة التي يتولَّاها بعد أبيه، فسبقهما بالخروج وتعرَّض لهما وهما خارجتان فسألهما عن قضيتهما، فأخبرتاه.

فطلب سِكِّينًا ليشقَّ الولد نصفين ويُعطي كلَّ واحدةٍ منهما نصفه، فوافقت الكبرىٰ وقالت الصغرىٰ: لا تفعل رحمك الله هو ابنها. فحكم به للصغرىٰ؛ لأنها فضلت رؤيته حيًّا عند صاحبتها علىٰ قتله بالسكين أمام عينها.

ما يؤخذ من الحديث

يؤخذ منه أمران:

١- أنَّ اعتراف الشخص بشيءٍ تحت تأثيرٍ من المُؤثِّرات يكون لاغيًا ولا يُعمل به، فإن سليمان عليه السَّلام حكم بالولد للصغرىٰ مع اعترافها بأنه للكبرىٰ؛ لأنها اعترفت مخافة أن يشقَّ ابنها بالسكين، وعلىٰ هذا فالاعترافات التي تُنْتَزَعُ من الشخص بأنواعٍ من العذاب كالتهديد بالقتل أو بهتك العرض أو نحو ذلك تكون باطلةً شرعًا.

وبعض الأئمَّة(١) أجاز أن يمس المتهم بعذابٍ ليقر، لكن لم يجز أحدٌ تلك الطرق التي اخترعت اليوم للتعذيب.

٢- أنَّ الحكم إذا كان خطأً يصح نقضه، بل يجب، لإيصال الحقِّ إلىٰ صاحبه، فإنَّ سليمان عليه السَّلام نَقَضَ حكم أبيه بحكمٍ كان صوابًا حصلت به صاحبة الحقِّ علىٰ حقِّها.

---

(١) هو الإمام مالك.

ولسليمان قصة أخرىٰ حكم فيها بغير حكم أبيه، وهي مذكورةٌ في القرآن الكريم قال الله تعالىٰ: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ [الأنبياء: ٧٨ – ٧٩].

وحاصل القصة: أنَّ حرثًا، وهو زرعٌ لجماعةٍ من النَّاس، نَفَشَتْ فيه غَنَمُ قومٍ -أي: رعته ليلًا[١] وليس معها راعٍ- فأفْسَدَتْهُ، فتحاكموا إلىٰ داود عليه السَّلام، وقصُّوا عليه القِصَّة فحكم بالغنم لأصحاب الحرث يأخذونها عوضًا عن الحرث الذي أفسدته؛ حيث إنَّ أصحاب الغنم مُقصِّرون، وكان سليمان حاضرًا مجلس الحكم وعمره نحو إحدىٰ عشرة سنة فقال: غير هذا أرفق بالفريقين. وأمر أن تدفع الغنم لأهل الحرث ينتفعون بألبانها وأشعارها، ويدفع الحرث لأهل الغنم يقومون عليه بالإصلاح حتىٰ يعود كما كان ثُمَّ يترادَّان، أي: يردُّ أهل الغَنَمِ الحَرْثَ لأصحابه، ويردُّ أهل الحَرْثِ الغَنَمَ لأصحابها، هكذا ورد عن ابن عبَّاسٍ وقتادة.

وقال ابن مسعودٍ وشريحٌ: إنَّ راعيًا نزل ذات ليلةٍ بجانب كَرْمٍ فدخلت الأغنام الكَرْمَ وهو لا يشعر، فأكلت القضبان وأفسدت الكَرْمَ، فصار صاحب الكَرْمِ من الغد إلىٰ داود، فقضىٰ بالأغنام له لأنه لم يكن بين ثمن الأغنام وثمن الكرم تفاوتٌ، فمرا بسليمان -وهو ابن إحدىٰ عشرة سنة- فقال لهما: ما قضىٰ

(١) النَّفَش -بفتح النون والفاء- لا يكون إلا بالليل، بخلاف الهَمَل -بالفتح أيضًا- فإنه يكون بالليل والنهار.

بينكما داود؟ فقصَّا عليه القِصَّة، فقال: غير هذا أرفق بالفريقين، فعادا إلى داود فأخبراه بذلك، فدعا سليمان، وقال له: بحقِّ النبوَّة والأبوَّة إلَّا ما أخبرتني بالذي هو أرفق بالفريقين، فقال سليمان: تُسَلِّم الأغنام إلى صاحب الكَرْمِ لينتفع بنسلها وصوفها ومنافعها، ويعمل الرَّاعي في إصلاح الكَرْمَ إلى أن يعود كهيئته، ثُمَّ يتسلمه صاحبه وترد الأغنام إلى صاحبها، فقال داود: القضاء ما قضيت وحكم بذلك، فذلك قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًاۚ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

قال الحسن: كان الحُكم ما قضى به سليمان، ولم يُعنِّف الله داود في حُكْمِهِ.

قلت: وذلك يدل على أنَّ الأنبياء كان يجتهدون، وأنَّ المخطيء في اجتهاده غير مؤاخذٍ.

العبــرة

العبرة من القضيتين: أنَّ الله تعالى قد يتفضَّل على الصغير فيُعطيه ما لا يعطي الكبير -وفي المثل المشهور: يضع سِرُّه في أضعف خَلْقِهِ- لكن بشرط الأهليَّة، وسليمان كان أهلًا لما أُعطي من إصابة الحكم وتكفي شهادة الله له بقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠].

(تنبيه): سليمان عليه السَّلام أوَّل من فرَّق بين الشهود، وذلك أنَّ امرأةً رُمِيت بالزِّنا -مع أنها صالحةٌ- وشهد عليها أربعة شهودٍ أمام داود عليه السَّلام فأمر برجمها، فعلم سليمان فطلب من كلِّ شاهدٍ أن يشهد على انفرادٍ، فاختلفت أقوالهم وظهر كذبهم وبرئت المرأة.

(تنبيه آخر): كان العلاء بن الشِّخِّير يقول: العافية مع الشَّكُر أحب من البلاء مع الصبر. قال سفيان الثوري: وذلك لأن الله تعالى مدح سليمان مع العافية بقوله: ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠] وقال في صفة أيوب مع البلاء الذي كان فيه: ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤] فاستوت الصفتان، وهذا معافى وهذا مبتلى، فوجدنا الشُّكْر قد قام مقام الصبر، فلما اعتدلا كانت العافية مع الشكر أحب من البلاء مع الصبر.

٣- صدقة مقبولة

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قال: «قال رجلٌ: لأتصَدَّقَنَّ بصَدَقَةٍ، فخَرَجَ بصَدَقَتِهِ فوضَعَها في يدِ سارقٍ، فأصْبَحُوا يتحَدَّثون: تُصُدِّقَ الليلة على سارقٍ، فقال: اللهمَّ لك الحمدُ على سارقٍ، لأتصَدَّقَنَّ بصَدَقَةٍ. فخرج بصَدَقَتِهِ فوضعها في يد زانيةٍ، فأصبحوا يتحَدَّثون: تُصُدِّق الليلةَ على زانيةٍ، فقال: اللهمَّ لك الحمد على زانيةٍ، لأتصَدَّقَنَّ بصَدَقَةٍ. فخرجَ بصَدَقَتِهِ فوضَعَها في يد غَنيٍّ، فأصْبَحُوا يتحَدَّثون: تُصُدِّقَ الليلةَ على غَنيٍّ، فقال: اللهمَّ لك الحمدُ على سارقٍ وعلى زانيةٍ وعلى غَنيٍّ. فأُتِيَ فقيل له: أمَّا صَدَقَتُكَ على سارقٍ فلعلَّه أن يَسْتَعِفَّ عن سَرِقَتِهِ، وأمَّا الزَّانِيةُ فلعلَّها أن تَسْتَعِفَّ عن زِناها، وأمَّا الغنيُّ فلعلَّه أن يَعْتَبِرَ فيُنْفِقَ ممَّا آتاهُ اللهُ».

رواه الشيخان، وهذا لفظ البخاريِّ.

المفردات

تُصُدِّق: بضمِّ التاء والصاد وكسر الدال المشدَّدة وفتح القاف.

فأُتِي: بضمِّ الهمزة وكسر التاء وفتح الياء.

المعنى

صاحب هذه القِصَّة رجلٌ خَيِّر أراد أن يتصَدَّق بصدقةٍ يرجو ثوابها من الله، فخرج بصدقته ليلًا يُخفيها من الناس فوقعت في يد سارقٍ، ويظهر أنها كانت مَبْلَغًا له بال، فأصبح الناس يتحدَّثون مُتعَجِّبين يقولون: تُصُدِّق الليلة على سارقٍ! مع أنَّ السارق يستحقُّ العقوبة لا الصدقة؛ لأنه يسرق أموال الناس،

فحمد الله صاحب الصدقة، وأخرج صدقةً ثانيةً فوقعت في يد زانيةٍ فتعجَّبَ الناس! وتحدَّثوا بهذه الصدقة التي وقعت في غير موقعها: كيف يُتصَدَّق علىٰ زانيةٍ تبيع نفسها وتتاجر بعرضها وشرفها؟ وعلم صاحب الصدقة فحمد الله، وأخرج صدقةً ثالثةً فوقعت في يد غنيٍّ، وتعجب الناس أيضًا وتحدَّثوا بهذه الصدقة التي أخذها غنيٌّ هو أولىٰ بأن يدفعها ومثلها لفقيرٍ محتاجٍ، وعَلِمَ صاحب الصدقة فحمد الله واعتقد أنَّ هذا أمرٌ أراده الله، ولم يحاول أن يخرج صدقةً رابعةً.

فأتاه مَلَكٌ في صورة إنسانٍ وأخبره أنَّ صدقته قُبلت كما جاء في روايةٍ أخرىٰ، ثُمَّ قال له: أمَّا صدقتك علىٰ السارق فلعلَّه أن يستعفَّ عن سرقته بسببها بأن يتَّخِذها رأس مالٍ يُتاجِر بها، وأمَّا الزانية فلعلها أيضًا تستعفُّ عن الزِّنا بصدقتك بأن تسهم بها في معاملةٍ تعود عليها بربحٍ يكفيها، وأمَّا الغنيُّ فلعله أن يعتبر بك ويقول في نفسه: هذا أخرج بعض ماله صدقة لله يبتغي بها رضاه ومثوبته فينبغي لي أن أعمل مثله، فينفق ممَّا آتاه الله.

وبذلك يكون لصاحب الصدقة أجره مرَّتين: مرة علىٰ صدقته، وأخرىٰ علىٰ استعفاف السارق والزانية بها، واقتداء الغني به.

ما يؤخذ من الحديث

يؤخذ منه أمران:

١ - أنَّ الإنسان إذا أخرج صدقةً لا يُضِيره أن تقع في يد من لا يستحقها، وهذا في صدقة النَّفْل، أمَّا الصدقة المفروضة: وهي زكاة المال وزكاة الفِطْر فلا تصح إلَّا إذا أعطيت لمن عَيَّنه الشارع لأخذها.

قال الله تعالى في زكاة المال: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

وزكاة الفطر بيَّن الحديث أنها تُعطَى للمسلم الفقير، والأفضل ألا يكون عاصيًا.

٢- أنَّ المسلم إذا حصل له ما يكره فينبغي له أن يقابله بالحمد وهو أعلى من الصبر؛ لأنه يدل على الرِّضا، ولهذا قال عمر رضي الله عنه لأبي موسى الأشعريِّ في كتابه إليه: إن استطعت أن ترضى، وإلَّا فاصبر.

العبــرة

العبرة في هذه القصة أنَّ بعض الأشياء قد تبدو للناس غير مفهومةٍ أو غير معقولةٍ، مثل الصدقة على السارق والزانية والغنيِّ، بدت للناس غير مفهومةٍ، فتحدَّثوا عنها مُتعجِّبين منها حتى إن صاحب الصدقة نفسه لم يملك إزاءها إلَّا أن يحمد الله الذي لا يُحمَد على مكروهٍ سِواه، لكنها في الباطن اشتملت على حِكَم تجعلها مفهومةً ومعقولةً، بحيث ظهر لصاحب الصدقة أنَّ ما وقع كان خيرًا وأعظم لأجره، وهذا معنى ما يقال: «لو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع»، والناس يروونه حديثًا لكنه ليس بحديثٍ.

وهذه القصة تشبه قصة الخَضِر عليه السَّلام، فإنه خَرَقَ السَّفِينة وقَتَلَ غُلامًا وأقام جِدارًا من غير أن يأخذ عليه أَجْرًا، وبدت أعماله غير مفهومةٍ لموسى عليه السَّلام فأنكرها عليه فلما بيَّن له حِكْمَتها سلَّم واطمأنَّ.

وقصة أخرى تُشبهها: كان نبيٌّ من بني إسرائيل قاعدًا تحت شجرةٍ يستظل بظلِّها وتحته عين تجري، فجاء شخصٌ يحمل صُرَّة دراهم ووضعها بجانب العين ونزل إلىٰ حافَّتها فاستحم، ومكث يستريح، ثُمَّ ذهب ونسي الصُّرَّة حيث تركها، فجاء شخصٌ ثانٍ فاستحم ووجد صُرَّة الدراهم فأخذها وذهب، ثُمَّ جاء شخصٌ ثالثٌ وقعد بجانب العين يستريح، وإذا بالشخص الأول جاء يجري كأنه جملٌ هائجٌ تذكَّر صُرَّة الدراهم، فجاء يبحث عنها فوجد ذلك الرجل بجانب العين فسأله عن صُرَّة الدراهم، فأجاب: لم أرَها فكذَّبه صاحبها، وحصلت بينهما مخاصمة أدَّت إلىٰ تماسكٍ بالأيدي فضرب صاحب الدراهم خصمه بسلاحٍ كان معه فقتله.

فقال ذلك النبيُّ: عجبًا يا رب! شخصٌ يأخذ الدراهم، وآخَر يُقتل بسببها؟ فأوحىٰ الله إليه: إنَّ الدراهم التي أخذها ذلك الرجل وذهب كانت دينًا لأبيه علىٰ الرجل الذي جاء يحملها وماطله بدفعها حتىٰ مات ولم يأخذها فأخذها ولده، وأمَّا الرجل الذي وجده علىٰ العين وقتله فإنه كان قد قتل والده مِن قبل وهو لا يزال طفلًا فلم يقتل إلَّا قاتل أبيه، وإن كان لا يعرف ذلك.

(تنبيه): لو قَتَل رجلٌ شخصًا في خصومةٍ مثلًا ثُمَّ تبيَّن أنَّ الشخص المقتول يستحقُّ القتل في قصاصٍ أو حَدٍّ فلا يُقتَل القاتل في هذه الحالة؛ لإزهاقه نفسًا تستحقُّ الإزهاق، لكن يُعاقب بغير القتل لافتياته علىٰ الحاكم وإقدامه علىٰ القتل.

٤- إن لنفسك عليك حقًا

عن أبي جُحَيْفَةَ رضي الله عنه قال: آخَىٰ النبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم بين سلمان وأبي الدرداء رضي الله عنهما، فزار سلمان أبا الدرداء فرأىٰ أُمَّ الدرداء مُبْتَذِلَةً، فقال: ما شأنُك؟ قالت أخوك أبو الدرداء ليس له حاجةٌ في الدُّنيا. فجاء أبو الدرداء فصنع له طعامًا فقال له: كُلْ فإني صائِمٌ. قال: ما أنا بآكلٍ حتَّىٰ تأكل، فأكَلَ. فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، فقال: نَمْ، فنام. ثُمَّ ذهب يقوم، فقال له: نَمْ، فنام. فلمَّا كان آخِرُ الليل قال سلمان: قُمِ الآن، فصَلَّيا جميعًا، فقال له سلمان: إنَّ لربِّك عليك حقًّا، وإنَّ لنَفْسِكَ عليك حَقًّا، ولأهْلِكَ عليك حَقًّا، فأعْطِ كُلَّ ذي حَقٍّ حَقَّهُ.

فأتىٰ النبيَّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فذكر ذلك له، فقال النبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «صَدَقَ سَلْمانُ». رواه البخاريُّ.

المفردات

جُحَيْفَة: بضم الجيم وفتح الحاء.

مُبْتَذِلة -بالذال المعجمة- أي: لابسة ثيابًا مُمتهنة بالية.

فأَعْطِ: بهمزة قطع مفتوحة، وإسقاطها لحنٌ وتحريفٌ.

المعنى

لَمَّا هاجر النبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم إلىٰ المدينة آخَىٰ بين الصحابة توكيدًا لأخوَّة الدِّين وإذهابًا للفوارق التي كانت في الجاهلية، وكانوا يتوارثون بهذه الأخوَّة، فإذا مات صحابيٌّ أنصاريٌّ ورثه أخوه الصحابيُّ المهاجريُّ

وبالعكس حتى نزل قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ [الأحزاب: ٦] الآية، فبطل التوارث بهذه الأخوَّة وبقيت أخوَّة دينيَّة روحيَّة، ومِمَّن آخى بينهم النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم سلمان الفارسي(١) وأبو الدرداء.

فذهب سلمان إلى أبي الدرداء يزوره في بيته قيامًا بحَقِّ أخوَّته، فوجد امرأته أُمَّ الدرداء مُبْتَذِلةً في لبسها وهيئتها فسألها لِمَ لا تتجمَّل لزوجها في بيتها، فقالت: أخوك أبو الدرداء لا حاجة له في الدنيا ولا غرض له في النِّساء. جعل الزهد غايته، والعبادة صناعته، فلمن أتجمَّل؟ وجاء أبو الدرداء ورحَّب بأخيه سلمان في بيته، ثُمَّ قَدَّم له الطعام وقال له: كل ولا تنتظرني فإني صائمٌ صيام تطوُّعٍ لله تعالى، فقال له سلمان: لست بآكلٍ من هذا الطعام ولا ذائقًا منه شيئًا حتى تأكل معي. فأكل أبو الدرداء مع أخيه وضيفه، فلما جاء الليل ترك أبو الدرداء ضيفه ينام وقام يريد إحياء الليل بالصلاة كعادته، فقال له سلمان: نَمْ وأَرِحْ جسمك من تعب العمل طول النهار. فنام إرضاء لضيفه، ثُمَّ أراد أن يقوم للصلاة بعد هَجْعَةٍ فقال له: نَمْ، فنام. حتى إذا كان آخِر الليل وقرب أذان الفجر قال له سلمان: قُمْ الآن فتجهَّز لصلاة الصبح، فقاما وتوضَّئا وصَلَّيا جميعًا ركعاتٍ لله، وأذَّن الصبح فصلَّياه جماعة.

وقال له بعد الصَّلاة: يا أبا الدرداء لا تتجه للعبادة والزهد وتترك ما

---

(١) كان من أجلاء الصحابة وهو من شيعة عليٍّ عليه السَّلام وقد اتهمه بعض المعاصرين بأنه مؤسِّس مذهب الباطنية، وهي تهمةٌ باطلةٌ.

عداهما فإنَّ عليك حقوقًا كثيرةً:

إنَّ لربِّك عليك حقًا: وهو أداء ما فرضه عليك.

وإنَّ لنَفْسِك عليك حقًّا: وهو أن تُعطيها قِسْطًا من النوم والرَّاحة، ومن الطعام الحلال والزينة المباحة: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]. وإنَّ لزوجك عليك حقًّا: وهو أن تطعمها وتكسوها وتعفها ولا تذرها كالأرملة وهي لها زوج.

فأعط كلَّ ذي حَقٍّ حَقَّه، وكما تخشىٰ أن يُحاسبك الله علىٰ إضاعة حَقِّه فاخْشَ أن يحاسبك علىٰ إضاعة حَقِّ نفسك وأهلك.

بدا هذا الكلام غريبًا لأبي الدرداء الذي أَلِفَ العَزُوف عن الدنيا ومَلَذَّاتها فجاء إلىٰ النبيِّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فحكىٰ له ما جرىٰ بينه وبين سلمان وذكر نصيحة سلمان له، فقال النبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «**صَدَقَ سلمان**». فيما قال، وفهم روح الإسلام الذي أتىٰ بالتيسير ولم يأتِ بالتعسير.

وفي "الصحيحين" عن عبدالله بن عمرو بن العاص: أنه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال له:«**ألم أُخْبَر أنَّك تصومُ النَّهارَ وتقومُ الليلَ؟**» قلت: بلىٰ يا رسول الله، قال: «**فلا تفعل، صُمْ وأَفْطِر، ونَمْ وقُمْ؛ فإنَّ لجسدك عليك حَقًّا، وإنَّ لعينيك عليك حَقًّا، وإنَّ لزوجك عليك حَقًّا، وإنَّ لزَوْرِكَ -زوَّارك- عليك حَقًّا، وإنَّ بحسبك أن تصوم مِن كلِّ شهرٍ ثلاثة أيامٍ؛ فإن لك بكلِّ حسنةٍ عشر أمثالها، فإنَّ ذلك صيام الدَّهر**».

وفي "صحيح البخاري" عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله

صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم إذا أمَرَهُم أمَرَهُم من الأعمال بما يُطيقون. قالوا: إنَّا لسنا كَهَيْئتك يا رسول الله، فيغضب حتَّىٰ يعرف الغضب في وجهه ثُمَّ يقول: «**إنَّ أتْقَاكُم وأعْلَمَكُم بالله أنا**». فهذا الحديث يدل علىٰ أنَّ النبيَّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم كان يأمر الصحابة بما يسهل عليهم دون ما يشق خشية أن يعجزوا عنه، وكان هو يفعل بمثل ما يأمرهم به ليكون أسوةً لهم بقوله وفعله.

والمقصود: أنَّ الدِّين الإسلاميَّ مبنيٌّ علىٰ التخفيف والتيسير لا علىٰ التشديد والتعسير، قال الله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

وقال في صفة النبيِّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم التي أنزلها في التوراة: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ومن هنا رُخِّص للمريض والمسافر أن يُفْطرا في رمضان، كما رُخِّص للمريض أن يتيمَّم إذا لم يقدر علىٰ الماء، وأن يصلِّي قاعدًا إذا لم يقدر علىٰ الصَّلاة قائمًا، ورُخِّص للمسافر أن يقصر الصلاة الرباعيَّة إلىٰ ركعتين. وقال النبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «**إنَّ اللهَ يحبُّ أن تُؤْتَى رُخَصَهُ كما يُحِبُّ أن تُؤْتَى عَزائِمُهُ**».

وكان النبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم في سَفَرٍ وهم صائمون في رمضان فأخذ قَدَحًا من ماءٍ وشَرِبَ منه نهارًا أمام الصحابة ليُفطروا، ثُمَّ بلغه أنَّ جماعةً منهم ظلُّوا صائمين، فقال عليه الصَّلاة والسَّلام: «**أولئك العُصاة**». وكرَّر هذه العبارة مرَّتين أو ثلاثًا، وفي الحديث الصحيح: «**ليس مِن البرِّ الصِّيام في السَّفَر**».

ما يؤخذ من الحديث

يؤخذ منه أمور:

١- أنَّ الصائم المتطوِّع بصومه يجوز له الإفطار ولا إثم عليه، وقد ثبت في "الصحيح": أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم أصبح يومًا صائمًا ثُمَّ أتته بعض أمَّهات المؤمنين بطعامٍ فقال:«**أَرِينِيه فقد أصْبَحْتُ صَائمًا**». وأكل منه.

وعند المالكيَّة: لا يجوز للمتطوِّع بصومه أن يفطر، وإذا فعل يكون آثمًا إلَّا إذا أمره بالإفطار والده أو شيخه فيفطر ولا إثم عليه.

وحصل مرة: أن حضر مولانا الأستاذ الإمام الوالد رضي الله عنه حفلة بعض الإخوان الصِّدِّيقين بطنجة، وحضرها بعض الأتباع وهم صائمون فأمرهم بالإفطار فأفطروا، وعلم بعض أهل العلم فاعترض بأن هذا لا يجوز، فبعث له الاستاذ الإمام الوالد يبيِّن له أنَّ إفطار الصائم المُتطوِّع أجازته السُّنَّة الصحيحة وذكر له الأحاديث، ثُمَّ قال له: وحادثتنا جائزةٌ أيضًا في مذهب المالكيَّة؛ لأنهم أجازوا للصائم المتطوِّع أن يفطر بأمر والده أو شيخه، وأنا شيخهم وقد أمرتهم بالإفطار، وأراه النصَّ في كتب المالكيَّة.

وهكذا كان مولانا الأستاذ الإمام الوالد واسع الاطلاع قويَّ الحُجَّة، يُلْزِم المُقلِّدين من كتب مذهبهم ويريهم نصوصًا لا يعرفونها.

وكان قد رأى في بداية طلبه للعلم رؤيا حاصلها: أنه دخل على الإمام مالكٍ في قبةٍ وجلس بين يديه فسلَّمه كتاب المُدوَّنة، فكان بعد في الفقه المالكيِّ لا يشق له غبار، حتى أنَّ شيخه السيِّد المهدي الوزَّانيَّ مفتي الشمال الإفريقي

نقل بعض فتاويه[١].

٢- أنَّ صاحب البيت ينبغي له أن يأكل مع الضيف ليُؤنِسه ويذهب عنه وَحْشَة الغُربة، أمَّا النوم فإنه ينبغي له أن يتركه ينام وحده؛ لأن ذلك أدعىٰ لراحته.

٣- أنَّ المؤمن يجب عليه أن يؤدِّي ما عليه من حقوقٍ لله ولمخلوقاته، وألَّا يُغَلِّب حقًّا علىٰ حقٍّ، ومن هنا عرَّف العلماء الشخص الصالح: بأنه الذي يؤدِّي حَقَّ الخالق وحَقَّ المخلوق، وسمَّىٰ الله الأنبياء صالحين؛ لأنهم أدوا حَقَّه في الطاعة وحَقَّ عباده في التبليغ والنصيحة.

٤- أنَّ المؤمن ينبغي له أن يقتصد في العبادة، وألا يكثر منها حتىٰ يَكِلَّ وينقطع.

ثبت في "الصحيحين" عن عائشة رضي الله عنها: أنَّ النبيَّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم دخل عليها وعندها امرأةٌ[٢] قال: «مَن هذه؟» قالت: هذه فلانة

---

(١) وكان يقرأ "جمع الجوامع" في الأصول علىٰ العلَّامة السيِّد محمَّد جعفر الكتانيِّ بجامعة القرويين، فصعب فهمه أول الأمر فجاءه العارف الشعراني في المنام وسأله: مالك مهمومًا؟ فأجابه بقوله: صعب علىٰ "جمع الجوامع"، فأنا مهمومٌ لذلك. فقال له: هاتِ المتن لأشرحه لك، فأحضر المتن وصار الشيخ الشعراني يفك له ألفاظه وعباراته بشرحٍ وجيزٍ، فاستيقظ من نومه وقد سهل عليه فهم الكتاب ولم يجد صعوبةً في عِلْم الأصول بعد ذلك، ومِن ثَمَّ أحبَّ الشيخ الشعراني ودأب علىٰ اقتناء كتبه حتَّىٰ تيسَّر له منها ما لم يتيسَّر لغيره، وحصل علىٰ رسائل من تأليفه بخطِّه.

(٢) قيل: هذه المرأة من بني أسد، ولمسلمٍ من طريق الزهريِّ، عن عروة: أنها الحَوْلاء بنت تُوَيْتٍ.

يذكر من صلاتها -تعني أنها تُصَلِّي كثيرًا- قال: «**مَهْ، عليكم بما تُطِيقون، والله لا يَمَلُّ اللهُ حتَّى تَمَلُّوا**». الحديث.

مَهْ: كلمة زجرٍ أي: اكتفي.

لا يمل الله: أي لا يُعاملكم معاملة المالِّ فيقطع ثوابه عنكم.

حتى تملُّوا: فتنقطعوا عن العبادة.

وفي "الصحيحين" أيضًا عن أنسٍ رضي الله عنه قال: دخلَ النبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم المسجد، فإذا حبلٌ ممدودٌ بين الساريتين فقال:«**ما هذا الحَبْلُ؟**» قالوا: هذا حَبْلٌ لزينب، فإذا فَتَرَتْ تعلَّقت به، فقال النبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «**حُلُّوه، ليُصَلِّ أحَدُكم نَشَاطَهُ فإذا فَتَرَ فليَرْقُد**».

٥- أنَّ الإنسان يجوز له أن يعلن عن عبادته إذا أمن الرياء، فإنَّ أبا الدرداء لما قدَّم الطعام لسلمان قال له: كل فإني صائمٌ، وبالضرورة لم يقصد رياءً.

٦- ينبغي للمرأة في بيتها أن تكون نظيفةً، حسنة الثِّياب تتجمَّل بذلك لزوجها، فإنَّ سلمان أنكر علىٰ أُمِّ الدرداء حين وجدها مُبتذلةً في ثيابها.

٧- أنَّ المؤمن إذا رأىٰ في أخيه أو أخته ما يحتاج إلىٰ إصلاح نبَّهه إليه؛ لأن المؤمن مِرْآة المؤمن.

العــبرة

العبرة في هذا الحديث: أنَّ التقرُّب إلي الله ونيل رضاه ليس طريقه كَثْرة العبادة والتشدُّد فيها، لكن طريقه أداء العبادة المطلوبة علىٰ وجهٍ لا يدعو إلىٰ المَلَلِ والإعْياء ولا إلىٰ العجب والرِّياء.

وهنا ترك أبو الحسن الشاذليُّ -رضي الله عنه- ما كان عليه الصوفيَّة قبله مِن خُشُونةٍ في المأكل والمَلْبَسِ ولبس المرقَّعة وغير ذلك ممَّا كانوا يأخذون المريدين به.

ولهذا أيضًا كان كُمَّل الأولياء لا يزيدون في تعبُّدهم على ما كان عليه حال النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم وهديه؛ لأن حاله أشرف حالٍ، وهَدْيَهُ أكمل هَدْيٍ.

٥- معجـزة

عن العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه قال: شهدتُ مع رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يوم حُنَينٍ، فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فلم نفارقه، ورسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم علىٰ بغلةٍ له بيضاء، فلمَّا التقىٰ المسلمون والمشركون ولَّىٰ المسلمون مُدبرين، فطَفِقَ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يَرْكُضُ بَغْلَتَهُ قِبَلَ الكُفَّار وأنا آخذٌ بلِجامِ بَغْلَة رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أكُفُّها إرادة ألَّا تسرع، وأبو سفيان آخذٌ بركاب رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فقال رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «**أي عبَّاسُ، نادِ أصحاب السَّمُرَةِ**».

قال العبَّاس -وكان رجلًا صَيِّتًا-: فقلت بأعلىٰ صوتي: أين أصحاب السَّمُرة؟ فوالله لكأنَّ عَطْفَتَهم حين سمعوا صوتي عَطْفَةُ البَقَرِ علىٰ أولادها، فقالوا: يا لبَّيك يا لبَّيك، فاقتتلوا هم والكفار.

والدعوة في الأنصار، يقولون: يا معشر الأنصار يا معشر الأنصار، ثُمَّ قُصِرت الدعوة علىٰ بني الحارث بن الخزرج، فنظر رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم وهو علىٰ بغلته كالمُتطاوِل عليها إلىٰ قتالهم، فقال: «**هذا حِين حَمِيَ الوَطِيسُ**».

ثُمَّ أخذ رسول صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم حَصَياتٍ فرمَىٰ بهنَّ في وجُوه الكُفَّار، ثُمَّ قال: «**انْهَزَمُوا وربِّ محمَّدٍ**». فذهبت أنظر، فإذا القتال علىٰ هيئته فيما أرىٰ، فوالله ما هو إلَّا أن رماهم بحصَيَاته فما زلت أرىٰ حَدَّهم كَلِيلًا، وأمرهم مُدْبِرًا.

المفردات

حُنَين: بضم الحاء وفتح النون: موضعٌ قريبٌ من الطائف وقعت فيه الغزوة المعروفة، ويقال لها أيضًا: غَزْوَةُ هَوَازِن، وغَزْوَةُ أَوْطَاس -بفتح الهمزة وسكون الواو- اسم لموضع القتال.

السَّمُرة: بفتح السين وضم الميم: الشَّجَرة، والمراد بها هنا: الشجرة التي وقع تحتها بيعة الرِّضوان وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨].

صيِّتًا: بتشديد الياء المكسورة: عظيم الصوت.

لبَّيك: مصدر معناه: إجابة لك بعد إجابة.

حَمِيَ: بفتح الحاء وكسر الميم وفتح الياء.

الوَطِيسُ: بفتح الواو وكسر الطاء، التنُّور. وهذه العبارة كنايةٌ عن اشتداد القِتال، ولم ينطق بها أحدٌ قبل النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم فهو أوَّل من قالها.

حَدُّهم: بالحاء المهملة، بأسهم. كَليلًا: ضعيفًا. وأمرهم مدبرًا: كناية عن هزيمتهم.

المعنى

لَمَّا فتح الله تعالى على رسوله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم مكَّة المكرمة أطاعت له العرب إلَّا هوازن وثقيفًا؛ فإن أهلها كانوا طُغَاةً عُتَاةً، فمشى أشراف القبيلتين بعضهم إلى بعضٍ، فأشفقوا أن يغزوهم رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم وقالوا: قد فَرَغَ لنا، فلا ناهية له دوننا، والرأي أن نغزوه.

فجمعوا جموعهم واستعدُّوا للقتال، فعلم رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فخرج إليهم في اثني عشر ألف رجلٍ، ألفان من أهل مكَّة، وعشرة الآلاف الذين فتح الله تعالىٰ بهم مكَّة، وبعث النبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم إليهم عبدالله بن أبي حدرد الأسلمي، وأمره أن يدخل فيهم ويسمع منهم ما أجمعوا عليه، فدخل فيهم ومكث فيهم يومًا أو يومين وسمع كلامهم، ثُمَّ أتىٰ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فأخبره الخبر.

فجاء رجلٌ فقال: يا رسول الله إني انطلقت بين أيديكم حتىٰ اطلعت جبل كذا، فإذا أنا بهوازن عن بكرة أبيهم بظعنهم ونعمهم وشبابهم اجتمعوا إلىٰ حُنينٍ، فتبسَّم صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم وقال: «**تِلْك غَنيمَةُ المسلمين غدًا إن شاء الله تعالى**». واستعار صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم من صفوان بن أميَّة قبل إسلامه مائة دِرْعٍ بما يكفيها من السَّلاح، كما استعار من ابن عمِّه نوفل بن الحارس بن عبدالمطلب ثلاثة آلاف رمحٍ وقال له: «**كأني أنظر إلى رماحكم هذه تقصف ظهور المشركين**». فلما قرب من العدوِّ صَفَّهم ووضع الألوية والرَّايات مع المهاجرين والأنصار، فلواء المهاجرين أعطاه عليًّا عليه السَّلام، ولواء الخزرج أعطاه الحباب بن المنذر رضي الله عنه، ولواء الأوس أعطاه أُسَيد بن حُضَير رضي الله عنه، وركب صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم بغلته ولبس درعين المِغْفَر والبَيْضة، ومرُّوا بشجرة سدرة كان المشركون يُعظِّمونها وينوطون بها أسلحتهم، فقال الصحابة: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواطٍ، فقال رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «**اللهُ أكبر، هذا كما قال قوم موسى عليه السَّلام:** ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، لتركبنَّ

سَنَن مَن كان قبلكم». سَنَن: بفتح السين، طريق.

فلما وصلوا إلىٰ حُنينٍ وانحدروا في الوادي عند غبش الصبح خرج عليهم القوم -وكانوا كمنوا لهم في شِعاب الوادي ومضايقه بإشارة دريد بن الصَّمَّة- فاستقبلوهم بالنبل كأنهم جَرادٌ مُنتَشِر وكانوا رُماةً لا يكاد يسقط لهم سهمٌ فولَّىٰ المسلمون مُنهزِمين؛ لأنهم فوجئوا بالنِّبال تتساقط عليهم من كلِّ جهةٍ، وثبت النبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم وثبت معه نحو ثلاثمائة فيهم أبو بكرٍ وعمر وعليٌّ والعباس وابنه الفضل وأبو سفيان بن أخيه الحارث وربيعة بن الحارث ومعتب ابن عمِّه أبي لهب وفقئت عينه في هذه الغزوة، وصار رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يقول: «**أنا رسول الله، أنا محمد بن عبدالله، إني عبدالله ورسوله**». ويَرْكُض بغلته إلىٰ جهة الكفَّار، والعباس آخذٌ باللجام يكفُّها حتىٰ لا تسرع إلىٰ جهتهم مخافة أن يحصل أذىٰ لرسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، وأبو سفيان ابن الحارث آخذٌ بركابه فقال صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «**يا عبَّاسُ، نادِ أصحاب السَّمُرة**». ليذكِّرهم بالشجرة التي بايعوا تحتها بيعة الرضوان -وهي التي بايعوا فيها علىٰ الجهاد في سبيل الله- وكان العباس عظيم الصوت -كان يقف علىٰ جبل سلع بالمدينة وينادي غلمانه آخِر الليل وهم بالغابة فيسمعهم وبين الغابة وسلع ثمانية أميال- فنادىٰ العباس: يا أصحاب السَّمُرة، فتذكروا بيعتهم تحتها بالجهاد وأفاقوا من دهشة المفاجأة وتحركَّت همتهم لطلب الاستشهاد فأسرعوا إليه مُجيبين: «يا لبَّيك يا لبَّيك»، وعطفوا علىٰ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم عَطْفة البقر علىٰ أولادها حين تحس بخطرٍ يُهدِّدها، حتىٰ إذا انتهوا إليه وتتام عددهم ثلاثمائة استقبلوا الكفار فاقتتلوا،

وأشرف رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فنظر إلىٰ القوم وهم يجتلدون، وجعل يتطاول علىٰ بغلته ليستوعب رؤيتهم فقال:«**الآن حَمِيَ الوَطِيسُ**». أي: اشتدت الحرب. وصار يقول: «**أنا النبيُّ لا كَذِب، أنا ابن عبدالمطَّلب**».

ثُمَّ تناول قبضةً من ترابٍ فيها حَصَيات فرمىٰ بها في وجوه الكفار ثُمَّ قال:«**انهَزَموا** -بفتح الزاي- **وربِّ محمَّدٍ**». قال العباس: فذهبت أنظر فإذا القتال علىٰ هيئته فيما أرىٰ، فوالله ما هو إلَّا أن رماهم بحَصَيَاته فما زلت أرىٰ بأسهم ضعيفًا، وولوا مُدْبِرين.

حدَّث بعض المشركين -حضر يوم حُنينٍ- قال: التقينا نحن وأصحاب محمَّدٍ لم يقوموا لنا حَلْبة شاةٍ أن كشفناهم، فبينما نحن بسوقهم ونحن في آثارهم إذ صاحب بغلة بيضاء وإذا هو محمدٌ، فتلقَّانا عنده رجال بيض الوجوه، حسان الوجوه -هم الملائكة- وقالوا: شاهت الوجوه ارجعوا، فانهزمنا من قولهم وركبوا أجسادنا فكانت إياها. يعني: الهزيمة.

وإلىٰ رميه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم بالحصىٰ أشار البوصيري في الهمزية بقوله:

ورَمَىٰ بالحَصَىٰ فأقْصَدَ جَيْشًا ... ما العَصَا عِنْدَهُ وما الإلْقَاءُ ؟

يعني: ورمَىٰ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم بالحصىٰ فأصاب جيشًا عظيمًا وهزمه، أي شيءٍ عصا موسىٰ عند ذلك الحصىٰ؟ وأي شيءٍ إلقاء موسىٰ -عليه السَّلام- لعصاه عند إلقاء ذلك الحصىٰ؟ شتَّان ما بينهما، فلا يُقاس هذا بذاك؛ لأن هذا أعظم، فانقلاب العصا ثعبانًا مُشابهٌ لانقلاب حبال السَّحَرة وعِصِيِّهم ثعابين، وابتلاعها لحبالهم وعِصِيِّهم لم يقهر العدو بل زاد عتوهم، وزعموا أنَّ

موسىٰ -عليه السَّلام- عَلَّم السَّحَرة بعض السِّحْر وغَلَبهم ببعضه الآخَر، وأمَّا الحصىٰ فإنَّ إلقاءه أهْلَك العدوَّ وكسر جيشه.

ولما انهزم المسلمون في أول الغزوة تكلَّم رجالٌ من أهل مكَّة بما في نفوسهم مِن حِقْدٍ، فقال أبو سفيان -وكان إسلامه مدخولًا وكانت الأزلام في كنانته-: لا تنتهي هزيمتهم -يعني المسلمين- دون البحر، والله غلبت هوازن. فقال له صفوان: بفِيك الحجر.

وفرح قومٌ من مكَّة بهزيمة المسلمين وأظهروا الشماتة، ولكن الله كبتهم وخَيَّب آمالهم فنصر المسلمين نصرًا مُؤَزَّرًا، وكانت أموال هوازن غنيمةً للمسلمين، والحمد لله ربِّ العالمين.

ما يؤخذ من القصة

يؤخذ منها أمور:

١- جواز الاستعانة بأسلحة الكفَّار: فقد استعار النبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم سلاحًا من صفوان بن أميَّة قبل إسلامه، ولذلك لما بعث إليه يقول له: «**يا أبا أميَّة أَعِرْنا سلاحك نَلْقَ به عَدُوَّنا غدًا**». قال صفوان: أغصْبًا يا محمَّد؟ فقال صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «**بل عَارِيةً وهي مضمونة حتى نؤدِّيها إليك**». قال: ليس بهذا بأسٌ.

٢- أنَّ الصحابة مع إيمانهم التام بالنبيِّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ومشاهدتهم لنزول الوحي عليه ورؤيتهم للمعجزات التي أيده الله بها، تعتريهم نوباتٌ من الضعف البشريِّ فتحملهم علىٰ الهرب والفِرار طالبين النجاة بأنفسهم، وأنَّ ذلك لا يخدش إيمانهم ولا ينقص يقينهم، وفي هذا توسعةٌ علىٰ

عامَّة المؤمنين الذين يعتريهم مثل هذا الضعف وهم دون الصحابة إيمانًا ويقينًا.

٣- أنَّ النبيَّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم كان أشجع الناس وأقواهم قَلْبًا وأثبتهم جنانًا، وهذا معلومٌ من حاله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم بالضرورة.

وقد قرَّر العلماء: أنَّ من خصائصه عليه الصَّلاة والسَّلام ألَّا ينهزم ولا يتراجع، بل يجب عليه أن يثبت ولو اجتمع ضده أهل الأرض؛ لأنه موعودٌ بالنصر، ولذلك قال: أنا النبيُّ لا كذب، يشير إلىٰ ثباته صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم؛ لأنه نبيٌّ صادقٌ مصدوقٌ.

٤- أنَّ الفخر في الحرب بقصد إغاظة الكُفَّار أو تحريك همم المسلمين جائزٌ، بل مرغوبٌ فيه.

ولهذا قال صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «**أنا النبيُّ لا كذب، أنا ابن عبدالمطلب**». فحرَّك عزيمة المسلمين وأثار حماسهم بالشطر الأول، وأغاظ الكفَّار وأهاج حقدهم بالشطر الآخَر.

٥- أنَّ من نسي عهدًا قطعه علىٰ نفسه ينبغي تذكيره بأسلوب لطيفٍ لا يجرح شعوره؛ لأن الصحابة لما فرُّوا مُنهزمين ونسوا بيعتهم التي قطعوا فيها العهد بالجهاد حتىٰ المات، أمر النبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم العباس أن يناديهم: «يا أصحاب السَّمُرة» تذكيرًا لهم بالعهد، فلما سمعوا وتذكَّروا وأقبلوا مُسرعين حتىٰ يقول بعضهم -لشدة إسراعهم-: فلرماحهم أخوف عندي علىٰ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم من رِماح الكفار.

٦- نداؤهم بـ«يا أصحاب السَّمُرة» -وهذا لقبٌ محبوبٌ لهم؛ لأنه يُذكِّر بالبيعة التي يُعرفون بها- يُفيد أنَّ قائد الجيش ينبغي له أن ينادي أفراد جيشه

بألقاب يُحبُّونها ويُسمِّيهم بسماتٍ يرضونها، فإنَّ ذلك يُحبِّبه إليهم ويجعلهم أكثر طاعةً له.

٧- أنَّ النبيَّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم كان يسلك الأسباب الماديَّة والأسباب المعنوية.

فإلىٰ جانب استعداده عليه الصَّلاة والسَّلام لغزو هوازن بالرجال والسِّلاح، وهذا سببٌ ماديٌّ، سلك السبيل المعنويَّ فرماهم بالحَصَيات، ومعنىٰ هذا: أنَّ المؤمن ينبغي له في جميع شئونه أن يسلك السبيلين اقتداءً بنبيِّ الثقلين.

العــبرة

لما أقبل الصحابة علىٰ حُنينٍ، وكانوا اثني عشر ألف رجلٍ، قال أبو بكرٍ رضي الله عنه: يا رسول الله لن تُغلَب اليوم من قِلَّة، وشقَّ ذلك علىٰ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم وساءته تلك الكلمة، فلما وصلوا إلي حُنينٍ انهزموا وفرُّوا وأنزل الله: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ التوبة: [٢٥ – ٢٧].

إذن فكثرة الجيش لا تقتضي النَّصر ولا تستدعيه: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ ﴾ [البقرة: ٢٤٩] والعبرة من ذلك: أنَّ

المسلمين إذا كانوا في جهادٍ مع الكفار ينبغي لهم ألا يعجبوا بكثرتهم ويركنوا إليها، بل عليهم أن يسلكوا الأسباب المضادة، ويخلصوا النيَّة ويصدقوا العزيمة، ثُمَّ بعد ذلك يلجئون إلى الله تعالى في طلب نصره: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

وفي القصة عبرةٌ من جهة أخرى: هي أنَّ الشيء قد يكون صغيرًا في مظهره كبيرًا في أثره، فرمي حصيات في وجوه الكفار أمرٌ يسير لكنه في الأثر الذي ترتَّب عليه كثير، إذ كان سببًا في هزيمة جيش بأكمله؛ لأن الله بارك ذلك الرَّمْي وأضاف إلى ذاته المقدسة: ﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].

والعجيب في شأن ذلك الرَّمْي أنه أمرٌ عاديٌّ ليس فيه قلب حقيقةٍ ولا تغيير سُنَّةٍ كونيَّةٍ، ومع ذلك كان بما ترتَّب عليه معجزةً أرقى من قلب الحقيقة وأعلى من تغيير السُّنَّة الكونيَّة.

٦- فضل الصِّدْقِ

عن عبدالله بن كعب بن مالـكٍ -وكان قائِدَ كعبٍ، مِن بَنِيهِ، حين عَمِيَ- قال: سمعتُ كعب بن مالكٍ يُحَدِّثُ بحديثه حين تَخَلَّفَ عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلَّم في غَزْوَة تَبُوكَ.

قال كعبٌ رضي الله عنه : لم أَتَخَلَّفْ عن رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم في غَزْوَةٍ غَزَاهَا قَطُّ، إلَّا في غَزْوَة تَبُوكَ، غير أَنِّي قد تَخَلَّفتُ في غَزْوَةِ بَدْرٍ ولم يُعَاتِبْ أَحَدًا تَخَلَّفَ عنه، إنَّما خَرَجَ رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم والمسلمون يريدون عِيرَ قريشٍ، حتَّى جَمَعَ اللهُ بينهم وبين عَدُوِّهِمْ على غير مِيعَادٍ، ولقد شهدتُ مع رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ليلةَ العَقَبَةِ، حين تَوَاثَقْنَا على الإسلام، وما أُحِبُّ أَنَّ لِي بها مَشْهَدَ بَدْرٍ، وإن كانت بَدْرٌ أَذْكَرَ في النَّاسِ منها، وكان مِن خَبَرِي حين تَخَلَّفتُ عن رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم في غَزْوَة تَبُوكَ أَنِّي لم أكن قَطُّ أقوَى ولا أيسَرَ مِنِّي حين تَخَلَّفْتُ عنه في تلك الغَزوةِ، والله ما جمعتُ قبلها راحلتين قَطُّ، حتَّى جمعتهما في تلك الغزوة، فغزاها رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم في حَرٍّ شديدٍ، واستقبل سَفَرًا بعِيدًا ومَفَازًا، واستقبَلَ عَدُوًّا كثيرًا، فجَلَا للمسلمين أمرهم ليتأَهَّبُوا أُهْبَةَ غزوهم، فأخبرهم بوَجْهِهِمِ الذي يُريد، والمسلمون مع رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم كثيرٌ، ولا يجمعهم كتابُ حَافِظٍ، يريد بذلك الدِّيوان.

قال كعبٌ: فقَلَّ رَجُلٌ يريد أن يَتغيَّبَ، يظنُّ أَنَّ ذلك سيخفَى له، ما لم ينزل فيه وَحْيٌ من الله عزَّ وجلَّ، وغَزَا رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم تلك الغزوة حين طابتِ الثِّمارُ والظِّلَالُ، فأنا إليها أَصْعَرُ، فتجَهَّزَ رسول الله صلَّى الله

عليه وآله وسلَّم والمسلمون معه، وطَفِقْتُ أَغْدُو لكي أتجَهَّزَ معهم، فأرجِعُ ولم أَقْضِ شيئًا، وأقول في نَفْسي: أنا قادرٌ علىٰ ذلك إذا أردتُ، فلم يزل ذلك يتمادىٰ بي حتَّىٰ استمرَّ بالنَّاسِ الجِدُّ، فأصبح رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم غاديًا والمسلمون معه، ولم أَقْضِ مِن جَهَازِي شيئًا، ثُمَّ غَدَوْتُ فرجعتُ ولم أَقْضِ شيئًا، فلم يزل ذلك يتمادىٰ بي حتَّىٰ أَسْرَعُوا وتَفَارَطَ الغَزْوُ، فهَمَمْتُ أن أرتَحِلَ فأُدركهم، فيا ليتني فعلتُ، ثُمَّ لم يُقَدَّرْ ذلك لي، فطَفِقْتُ إذا خرجتُ في النَّاس بعد خُرُوجِ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يَحْزُنُني أنِّي لا أرىٰ لي أُسْوَةً إلَّا رَجُلًا مَغْمُوصًا عليه في النِّفاق، أو رجُلًا ممَّن عَذَرَ الله مِن الضُّعفاء، ولم يَذْكُرني رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم حتَّىٰ بَلَغَ تَبُوكَ فقال: وهو جالسٌ في القوم بتبُوكَ «**ما فعل كعب بن مالكٍ؟**» قال رجلٌ من بني سَلِمَةَ: يا رسول الله حَبَسَهُ بُرْدَاهُ والنظر في عِطْفَيهِ، فقال له معاذ بن جبلٍ: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما عَلِمْنا عليه إلَّا خيرًا، فسَكَتَ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم.

فبينما هو علىٰ ذلك رأىٰ رجُلًا مُبَيِّضًا يَزُولُ به السَّرَابُ فقال رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «**كُنْ أبا خَيْثَمَةَ**» فإذا هو أبو خَيْثَمَةَ الأنصاريُّ، وهو الذي تَصَدَّقَ بصَاعِ التَّمْرِ حين لَمَزَهُ المنافقون[١].

فقال كعب بن مالكٍ: فلمَّا بلغني أنَّ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قد

(١) يُشير إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ﴾ [التوبة: ٧٩]، وذلك أنَّ أبا خَيْثمة أتىٰ بصاعٍ من تمرٍ صدقة، فقال المنافقون: إنَّ الله لغنيٌّ عن صاع هذا، وتصدَّق عبدالرحمن بن عوفٍ بأربعة آلاف درهم أو دينار فقالوا: ما تصدَّق بها إلَّا رياء.

توجَّهَ قافِلًا مِن تَبُوكَ، حضرني بَثِّي، فطَفِقْتُ أتذكَّرُ الكذب وأقول: بِمَ أخرُجُ مِن سَخَطِهِ غَدًا؟ وأستعين علىٰ ذلك كلَّ ذي رأيٍ مِن أهلي، فلمَّا قيل لي: إنَّ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قد أَظَلَّ قادمًا، زَاحَ عَنِّي الباطل، حتَّىٰ عرفتُ أنِّي لن أنجُوَ منه بشيءٍ أبدًا، فأجمعتُ صِدْقَهُ.

وصَبَّحَ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قادمًا، وكان إذا قَدِمَ مِن سَفَرٍ، بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين، ثمَّ جَلَسَ للنَّاسِ، فلمَّا فعل ذلك جاءه المُخَلَّفُون، فطَفِقُوا يعتذرون إليه، ويحلِفُون له، وكانوا بِضعةً وثمانين رجلًا، فقبِلَ منهم رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم علانِيَتَهم، وبايعَهُم واستغفر لهم، ووَكَلَ سَرَائِرَهم إلىٰ الله، حتَّىٰ جِئْتُ، فلمَّا سَلَّمتُ تبسَّمَ تبسُّمَ المُغْضَبِ، ثُمَّ قال: «**تَعَالَ**» فجئتُ أمشي حتَّىٰ جلستُ بين يديه، فقال لي: «**ما خَلَّفَكَ؟ ألم تكن قد ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ؟**» قال: قلتُ: يا رسول الله إني، والله لو جَلَسْتُ عند غيرك مِن أهل الدُّنيا، لرأيتُ أني سأَخرجُ مِن سَخَطِهِ بعُذْرٍ، ولقد أُعْطِيتُ جدلًا، ولكنِّي والله لقد علمتُ، لئن حدَّثتُكَ اليوم حديث كذبٍ ترضى به عنِّي ليُوشِكَنَّ الله أن يُسْخِطَكَ عليَّ ولئن حدَّثتُكَ حديثَ صِدْقٍ تجد عليَّ فيه، إني لأرجو فيه عُقْبَىٰ الله، والله ما كان لي عُذْرٌ، والله ما كنتُ قَطُّ أقوىٰ ولا أيسَرَ مِنِّي حين تخلَّفتُ عنك، قال رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «**أمَّا هذا، فقد صَدَقَ، فقُمْ حتَّى يَقْضِيَ الله فيك**» فقمتُ.

وثَارَ رجالٌ مِن بني سَلِمَةَ فاتَّبعوني، فقالوا لي: والله ما عَلِمْناك أذنبتَ ذنبًا قبل هذا، لقد عَجَزْتَ في أن لا تكون اعتذرتَ إلىٰ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، بما اعتذر به إليه المُخَلَّفُون، فقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله

صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم لـك، قال: فوالله ما زالوا يؤنِّبونني حتَّىٰ أردتُ أن أرجع إلىٰ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فأُكَذِّبَ نَفْسِي، قال ثُمَّ قلتُ لهم: هـل لَقِيَ هذا معي مِن أحدٍ؟ قالوا: نعم، لَقِيَهُ معك رجلان قالا مثلما قلتَ، فقيل لهما مثلما قيل لـك، قال قلتُ: مَن هما؟ قالوا: مُرَارَةُ بن الرَّبيعة العامريُّ وهِلال بن أُمَيَّةَ الواقِفِيُّ، قال: فذكروا لي رجلين صالحين قد شَهِدَا بَدْرًا، فيهما أُسْوَةٌ، قال: فمَضَيْتُ حين ذكروهما لي.

قال: ونهىٰ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم المسلمين عن كلامنا، أيُّها الثلاثة، مِن بين مَن تَخَلَّفَ عنه، قال: فاجتنبنا النَّاسُ، وقال: تغيَّروا لنا حتَّىٰ تَنَكَّرَتْ لي في نفسي الأرضُ، فما هي بالأرض التي أعرف، فلبثنا علىٰ ذلـك خمسين ليلةً، فأمَّا صاحِبَايَ فاسْتكانا وقَعَدَا في بُيُوتِهما يبكِيان، وأمَّا أنا فكنتُ أَشَبَّ القوم وأَجْلَدَهُمْ، فكنتُ أخرج فأشهد الصَّلاة وأطُوفُ في الأسواق ولا يُكَلِّمُني أحدٌ، وآتي رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فأسلِّم عليه، وهو في مجلسه بعد الصَّلاة، فأقول في نَفْسِي: هل حَرَّكَ شفتيه بردِّ السَّلام، أم لا؟ ثُمَّ أُصَلِّي قريبًا منه وأسارقه النَّظَرَ، فإذا أقبلتُ علىٰ صلاتي نَظَرَ إليَّ، وإذا التفتُّ نحوه أعرض عنِّي.

حتَّىٰ إذا طال ذلك عليَّ مِن جَفْوَةِ المسلمين، مَشَيْتُ حتَّىٰ تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حائِطِ أبي قتادة، وهو ابن عَمِّي وأحبُّ النَّاسِ إليَّ، فسلَّمتُ عليه، فوالله ما رَدَّ عليَّ السَّلام. فقلتُ له: يا أبا قتادة أنشُدُكَ بِالله هل تَعْلَمَنَّ أنِّي أُحِبُّ اللهَ ورسوله؟ قال: فسكتَ، فعُدْتُ فناشَدْتُه، فسكتَ، فعُدْتُ فناشَدْتُه، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضَتْ عَيْنَايَ، وتَوَلَّيْتُ، حتَّىٰ تسَوَّرْتُ الجِدَارَ.

فبينا أنا أمشي في سوق المدينة، إذا نَبَطِيٌّ مِن نَبَطِ أهل الشَّام، مِمَّن قَدِمَ بالطَّعام يبيعه بالمدينة، يقول: مَن يدلُّ علىٰ كعب بن مالكٍ، قال: فطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُون له إليَّ، حتَّىٰ جاءني فدفع إليَّ كتابًا مِن مَلِكِ غَسَّانَ، وكنتُ كاتبًا، فقرأته فإذا فيه: «أمَّا بعد، فإنَّه قد بلغنا أنَّ صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هَوَانٍ ولا مَضْيَعَةٍ، فالحَقْ بنا نُوَاسِكَ»، قال فقلتُ: حين قرأتها: وهذه أيضًا مِن البلاء فتيامَمْتُ بها التَّنُّورَ فسَجَرْتُها بها.

حتَّىٰ إذا مَضَتْ أربعون مِن الخمسين، واستلبث الوَحْيُ، إذا رسول رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يأتيني، فقال: إنَّ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يأمرك أن تَعْتَزِلَ امرأتك، قال: فقلتُ: أُطَلِّقُها أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزِلها، فلا تَقْرَبَنَّها، قال: فأرسل إلىٰ صاحِبَيَّ بمثل ذلك، قال: فقلتُ لامرأتي: الحَقِي بأهلِكِ فكوني عندهم حتَّىٰ يَقْضِيَ الله في هذا الأمر، قال: فجاءت امرأة هِلال بن أميَّة رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، فقالت له: يا رسول الله إنَّ هِلال بن أميَّة شيخٌ ضائعٌ ليس له خادمٌ، فهل تَكْرَهُ أن أَخْدُمَهُ؟ قال: «لا، ولكن لا يَقْرَبَنَّكِ» فقالت: إنَّه والله ما به حركةٌ إلىٰ شيءٍ، ووالله ما زال يَبْكِي منذ كان مِن أمره ما كان إلىٰ يومه هذا.

قال: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم في امرأتك؟ فقد أَذِنَ لامرأة هلال بن أميَّة أن تخدمه، قال: فقلت: لا أستأذن فيها رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، وما يُدريني ماذا يقول رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم إذا استأذنته فيها وأنا رجلٌ شابٌّ؟ قال: فلبثتُ بذلك عشر ليالٍ، فكَمُلَ لنا خمسون ليلةً مِن حين نُهِيَ عن كلامنا.

قال: ثُمَّ صَلَّيتُ صلاة الفجر صباح خمسين ليلةً علىٰ ظَهْرِ بيتٍ مِن بيوتنا، فبينا أنا جالسٌ علىٰ الحَال التي ذَكَرَ الله عزَّ وجلَّ مِنَّا، قد ضاقت عليَّ نَفْسِي وضاقت عليَّ الأرضُ بما رَحُبَتْ، سمعتُ صوت صارخٍ أَوْفَىٰ علىٰ سَلْعٍ يقول بأعلىٰ صوته: يا كعب بن مالكٍ أبشر، قال: فخَرَرْتُ ساجدًا وعرفتُ أنْ قد جاء فرجٌ، قال: فآذن رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم النَّاسَ بتوبة الله علينا، حين صلَّىٰ صلاة الفجر، فذهب النَّاسُ يُبَشِّرُوننا، فذهب قِبَلَ صاحِبَيَّ[1] مُبَشِّرُون، ورَكَضَ رجلٌ إليَّ فَرَسًا، وسعىٰ ساعٍ مِن أَسْلَمَ قِبَلِي، وأَوْفَىٰ الجبل، فكان الصَّوتُ أسرع مِن الفرس، فلمَّا جاءني الذي سمعتُ صوته يُبَشِّرُني، فنزعتُ له ثَوْبَيَّ فكسوتهما إيَّاهُ ببشارته، والله ما أملك غيرهما يومئذٍ، واستعَرْتُ ثوبين فلبستهما.

فانطلقت أَتَأَمَّمُ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، يتلقَّاني النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا، يُهنِّئوني بالتوبة ويقولون: لتَهْنِئْكَ توبة الله عليك حتَّىٰ دخلتُ المسجد، فإذا رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم جالسٌ في المسجد وحوله النَّاسُ، فقام طلحة بن عُبيدالله يُهرول حتَّىٰ صافحني وهنَّأني، والله ما قام رجلٌ من المهاجرين غيره، قال فكان كعبٌ لا ينساها لطلحة.

قال كعبٌ: فلمَّا سلَّمتُ علىٰ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال: وهو يَبْرُقُ وجْهُهُ مِن السُّرُور ويقول: «**أبشِرْ بخير يومٍ مَرَّ عليك منذ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ**» قال فقلتُ: أَمِنْ عندك؟ يا رسول الله أم مِن عند الله؟ فقال: «**لا، بل مِن عند الله**».

---

(١) بفتح الباء مثنىٰ، وهما: مرارة بن الربيع وهلال بن أمية.

وكان رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، إذا سُرَّ اسْتَنارَ وَجْهُهُ، كأنَّ وَجْهَهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ، قال: وكنَّا نعرف ذلك، قال: فلمَّا جلستُ بين يديه قلتُ: يا رسول الله إنَّ مِن توبتي أن أنخَلِعَ مِن مالي صَدَقَةً إلىٰ الله وإلىٰ رسوله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، فقال رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «**أمسِك بعض مالك، فهو خيرٌ لك**» قال: فقلتُ: فإنِّي أمسِكُ سَهْمِيَ الذي بخَيْبَرَ.

قال: وقلتُ: يا رسول الله إنَّ الله إنَّما أنجاني بالصِّدْقِ، وإنَّ مِن توبتي أن لا أُحَدِّثَ إلَّا صِدْقًا ما بَقِيتُ، قال: فوالله ما عَلِمْتُ أنَّ أحدًا مِن المسلمين أبلاه الله في صِدْقِ الحديث منذ ذكرتُ ذلك لرسولِ الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم إلىٰ يومي هذا أحسن ممَّا أبلاني الله به، والله ما تعمَّدتُ كذبةً منذ قلتُ ذلك لرسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم إلىٰ يومي هذا، وإنِّي لأرجو أن يحفظني الله فيما بَقِيَ.

قال: فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ حتَّىٰ بلَغَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٧ - ١١٩].

قال كعبٌ: والله ما أنعم الله عليَّ مِن نعمةٍ قَطُّ بعدَ إذ هداني الله للإسلام أعظمَ في نَفْسِي، مِن صِدْقِي رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، أن لا أكون كذبتُهُ فأهلِكَ كما هَلَكَ الذين كذبوا، إنَّ الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شَرَّ

ما قال لأحدٍ. وقال الله: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٩٥ – ٩٦].

قال كعبٌ: كنَّا خُلِّفنا أيُّها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قَبِلَ منهم رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم حين حَلَفُوا له، فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أمرنا حتَّىٰ قضىٰ الله فيه، فبذلك قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ ﴾ ، وليس الذي ذَكَرَ الله ممَّا خُلِّفنا، تخلُّفنا عن الغَزْو، وإنَّما هو تَخْلِيفُهُ إيَّانا، وإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنا، عمَّن حَلَفَ له واعْتَذَرَ إليه فقَبِلَ منه. رواه الشيخان.

المفردات

تَبُوك: بفتح التاء وضم الباء: موضع بالشام.

راحلتين: تثنية راحلة، والراحلة: هي الناقة التي تصلح لأن ترحل أي: يشد علىٰ ظهرها الرحل وهو أثاث المسافر.

ورَّى: بتشديد الراء المفتوحة، أخفىٰ الغزوة التي يريدها وأظهر غيرها.

وأصْعَر: أميل.

وتفارط: تتابع مسرعًا.

مغموصًا عليه: معيبًا عليه.

عِطْفَيه: بكسر العين: جانبيه، كناية عن إعجابه بنفسه.

بثِّي: حزني.

نَبطي: النبط -بفتح النون- قوم يسكنون بين العراق والشام.

سجَّرتها: أحرقتها.

سَلَع: بفتح السين وسكون اللام: جبل بالمدينة.

المعنى

في شهر رجب سنة تسعٍ من الهجرة خرج النبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم إلىٰ تبوك؛ لأنه بلغه أنَّ الرُّوم جمعوا جموعًا كثيرة بالشام وأنهم قدموا مقدماتها إلىٰ البلقاء -مدينة بالشام- فخرج صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم لملاقاتهم، وسار بالناس -وهم ثلاثون أو أربعون ألفًا، وكانت الخيل عشرة آلاف فرس- وخلَّف علىٰ المدينة عليًّا عليه السَّلام، فأرجف به المنافقون وقالوا: ما خلَّفه إلَّا لاستثقاله، فأخذ عليٌّ سلاحه ولحِق بالنبيِّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم وهو نازلٌ بالجرف، فقال: يا نبي الله زعم المنافقون أنك ما خلَّفتني إلَّا أنك استثقلتني وتخفَّفت مِنِّي، فقال: «**كذبوا، ولكنِّي خلَّفتك لما تركت ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك، أما ترضى أن تكون مِنِّي بمنزلة هارون من موسى إلَّا أنه لا نبيَّ بعدي**»[1]. فرجع علي إلىٰ المدينة.

وكان النبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم إذا أراد أن يغزو قبيلةً من قبائل العرب يسأل عن قبيلة غيرها -يظهر بذلك أنه يريد غزوها- ليخفي وجهة

---

(١) ادَّعىٰ النواصب أنَّ هذا الحديث موضوعٌ، وكذبوا، بل هو في "الصحيحين" وله طرقٌ أفردها الحافظ ابن عساكر في جزءٍ خاصٍّ.

قصده، إلَّا هذه الغزوة فإنه أظهرها للناس ليستعدوا ويأخذوا أهبَتهم لطول السَّفَر وكثرة العدوِّ -وهم الروم- الذين بلغه تجمعهم لقتاله، واستنهض همم الناس للجهاد، وكان الوقت أول الخريف وقد طابت الثمار والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم؛ لأن زمن الخريف في الحجاز يكون حارًّا ولذلك حكىٰ الله عن المنافقين: ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ﴾ [التوبة: ٨١]، وردَّ عليهم بقوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١].

وتخلَّف المنافقون وقال عبدالله بن أُبيٍّ عند تخلُّفه: يغزو محمد بني الأصفر مع جهد الحال والحرِّ والبلد البعيد، يحسب محمدٌ أنَّ قتال بني الأصفر معه اللعب، والله لكأني أنظر إلىٰ أصحابه مقرَّنين في الحبال.

واجتمع جماعةٌ من المنافقين في بيت سويلم اليهوديِّ وقال بعضهم لبعضٍ: أتحسبون أنَّ جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضًا؟! والله لكأنهم -أي الصحابة- غدًا مقرَّنون في الحبال.

فقال رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم لعمَّار بن ياسر رضي الله عنهما: «**أدرك القومَ فإنهم قد احترقوا، فاسألهم عما قالوا؟ فإن أنكروا فقل: بل قلتم كذا وكذا**». فانطلق إليهم عمَّار فقال لهم ذلك، فأتوا رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يعتذرون إليه وقالوا: إنما كنَّا نخوض ونلعب، فأنزل الله تعالىٰ ردًا عليهم: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُ﴾ [التوبة: ٦٥]الآية.

وقال النبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يُرَغِّب في الجهاد ويحضُّ عليه: «**اغْزُو تبوكَ تَغْنَمُوا بنات بني الأَصْفَرِ والرُّوم**». فقال قومٌ من المنافقين: ائذن لنا ولا

تفتنًا، وقال الجد بن قيس: يا رسول الله أوتأذن لي ولا تفتنِّي؟ فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل أشد عجبًا بالنِّساء مِنِّي، وإني أخشىٰ إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ﴾ [التوبة: ٤٩].

والفتنة التي سقطوا فيها تخلُّفهم عن رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم وتخلُّف بعض المسلمين بغير عذرٍ وهم: أبو خيثمة وأبو ذرٍّ -وقد لحقا بالنبيِّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم في تبوك- وكعب بن مالكٍ ومُرارة بن ربيعة وهلال بن أميَّة وهم أصحاب هذه القصة.

وأقام النبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم بتبوك عشرين ليلة يقصر الصَّلاة ولم يحصل فيها قتال، وصالح رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يحنّة بن روبة صاحب أيلة علىٰ جِزيةٍ يدفعها وكتب له أمانًا، وكذلك صالح أهل جَرْباء وأَذْرُح علىٰ مائة دينارٍ يدفعونها في كلِّ رجب، وصالح أهل ميناء علىٰ ربع ثمارهم، ثُمَّ قفل صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم راجعًا إلىٰ المدينة.

ووقع في هذه الغزوة أمور:

١- في "صحيح مسلم" عن أبي سعيد أو أبي هريرة قال: لما كانت غزوة تبوك أصاب النَّاسَ مجاعةٌ فقالوا: يا رسول الله لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا فأكلنا وادَّهنَّا، فقال رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «**افعلوا**». فجاء عمر فقال: يا رسول الله إن فعلت قل الظهر، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم ثُمَّ ادعُ الله لهم عليها بالبركة لعل الله أن يجعل في ذلك البركة، فقال رسول الله صلَّىٰ الله

عليه وآله وسلَّم: «**نعم**». فدعا بنطع فبسطه، ثُمَّ دعا بفضل أزوادهم، فجعل الرجل يجيء بكفِّ ذرةٍ، ويجيء الآخر بكف تمرٍ، ويجيء الآخر بكسرةٍ، حتىٰ اجتمع علىٰ النطع من ذلك شيءٌ يسيرٌ، فدعا رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم بالبركة، ثُمَّ قال: «**خذوا في أوعيتكم**». فأخذوا في أوعيتهم حتىٰ ما تركوا في المعسكر وعاءً إلَّا ملأوه، وأكلوا حتىٰ شبعوا وفضل فضلة، فقال رسول صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «**أشهد أن لا إله إلَّا الله وأني رسول الله، لا يلقى اللهَ بهما عبدٌ غير شاكٍّ فيُحْجَب عن الجنَّة**».

وهذه آيةٌ عظيمةٌ بتكثير طعامٍ يسيرٍ حتىٰ شبع منه جيشٌ عدده أربعون ألفًا وملأوا أوعيتهم وبقيت منه بقيَّة، وتعدَّدت هذه الآية في مواضع منها غزوة الخندق.

٢- روىٰ ابن شاهين عن أنسٍ رضي الله عنه قال: كنت مع النبيِّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم في غزوة تبوك، فقال المسلمون: يا رسول الله عَطِشت دوابُّنا وإبلنا، فقال: «**هل مِن فَضْلَةِ ماءٍ؟**». فجاء رجلٌ في شنٍّ بشيءٍ من ماءٍ فقال: «**هاتوا صحفة**». فصب الماء ثُمَّ وضع راحته في الماء، قال أنس: فرأيت الصحفة تتخلل عيونًا بين أصابعه، فسقينا إبلنا ودوابَّنا وتزوَّدنا، فقال النبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «**أكفيتم؟**». قلنا: نعم يا رسول الله، فرفع يده من الصحفة فارتفع الماء.

وقصَّة نبع الماء من أصابعه الشريفة تكرَّرت في عِدَّة مواطن، ورواها جماعة من الصحابة ثبتت الرواية عنهم في "الصحيحين" وغيرهما من طرق كثيرة

تفيد التواتر كما قال القرطبيُّ وغيره.

ونَبْعُ الماء من بين الأصابع أعظم من نبع الماء من الحجر حين ضربه موسىٰ بعصاه؛ لأن خروج الماء من الحجارة معهودٌ وشاهدناه وشاهده غيرنا، لكن خروج الماء من بين لحم ودم غير معهودٍ، ولذا قال بعض العلماء:

إن كان مُوسىٰ سَقَىٰ الأَسْبَاطَ مِن حَجَرٍ

فــإنَّ في الكَــفِّ مَعْنًــىٰ لــيس في الحَجَــرِ

وإنما طلب النبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فضلة ماءٍ ليضع يده فيها تأدُّبًا مع الله تعالىٰ؛ لأنه المُنفِرد بابتداع المعدومات وإيجادها من غير أصلٍ، ولئلَّا يظنَّ بعض الناس أنه المُوجِد للماء، وللإشارة إلىٰ أنَّ الله تعالىٰ أجرىٰ العادة بالتسبُّب.

٣- لَمَّا نزلوا تبوك وجدوا عينها قليلة الماء، تبُضُّ بشيءٍ من ماءٍ مثل شِراك النَّعلِ، فغرفوا من تلك العين قليلًا حتىٰ اجتمع شيءٌ في شَنٍّ، فغسل رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم وجهه ويديه ومضمض ثُمَّ أعاده فيها، فجرت العين بماء كثيرٍ وانخرق منها ماء له حسٌّ كحسِّ الصَّواعِق وقال النبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم لمعاذٍ: «**يا معاذُ، يوشك إن طالت بك حياةٌ أن ترى ما ههنا قد مليء جِنانًا**». أي: بساتين، ولا زالت العين تجري إلىٰ الآن، وحولها بساتين كما قال صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم.

٤- ورد في حديثٍ عن ابن مسعودٍ رضي الله عنه قال: رأيت ونحن في تبوك شعلةً من نارٍ في ناحية العسكر فاتبعتها أنظر إليها، فإذا رسول الله صلَّىٰ الله

عليه وآله وسلَّم وأبو بكر وعمر، وإذا عبدالله ذو البِجادَين المُزَنِيُّ قد مات، وإذا هم قد حفروا له ورسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم في حفرته وأبو بكرٍ وعمر يدليانه وهو يقول: «**أدْلِيا إلي أخاكما**». فأدْلَياه إليه، فلما هيَّأه لشِقِّه قال: «**اللهمَّ إنِّي أمسيتُ راضِيًا عنه فارْضَ عنه**». قال ابن مسعودٍ: يا ليتني كنت صاحب الحفرة.

ذكر الحافظ السيوطي: أنَّ الشعلة التي رآها ابن مسعودٍ هي ضوء شمعةٍ، ونقل عن العسكري في "الأوائل": أنَّ أول من أوقد الشمع جذيمة الأبرش وكان قبل البعثة النبوية بمدة، وألَّف رسالة سماها "مسامرة السموع في ضوء الشموع".

٥- أهدىٰ بعض النصارىٰ بتبوك إلىٰ النبيِّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم جبنة، فدعا بالسكين فسمَّىٰ الله وقطع وأكل، وهذا يدل علىٰ جواز أكل جبنة النصارىٰ إلَّا إن تحقَّقنا أنهم أضافوا إليها شيئًا مُحرَّمًا كإنْفِحَة الخنزير، لكن الإمام أبا بكر الطرطوشي المالكيَّ كان يُحرِّمها، وله في تحريمها تأليفٌ، وذكروا أنَّ مَن زاره[1] ونذر ألَّا يأكل الجبنة الرومية قضىٰ الله حاجته، ويظهر أنه تحقَّق أنهم يضيفون إليها إنفحة خنزير أو نحو ذلك كما هو حاصل الآن في بعض أنواع الجبنة الرومية.

٦- نزل رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم عن راحلته عند العودة فأوحىٰ الله إليه وراحلته باركة، فقامت تجرُّ زمامها، فلقيها حذيفة رضي الله عنه فأخذ

---

(١) قبره بالإسكندرية معروفٌ، وقد زرته.

بزمامها وجاء إلىٰ قرب رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فأناخها ثُمَّ جلس عندها حتىٰ قام النبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فأتاه بها فقال: «**من هذا؟**». قلت: حذيفة، فقال النبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «**إني مُسِرٌّ إليك سِرًّا فلا تذكرنَّه، إني نهيت عن الصَّلاة على فلانٍ وفلانٍ**». وعَدَّ جماعةً مِن المنافقين.

ومِن ثَمَّ سُمِّي صاحب سِرِّ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، فلما توفِّي النبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم كان عمر رضي الله عنه إذا مات رجلٌ ممَّن يظن به أنه من أولئك المنافقين أخذ بيد حذيفة فقاده إلىٰ الصَّلاة عليه، فإن مشىٰ معه حذيفة صلَّىٰ عليه عمر، وإن نزع يده من يده ترك الصَّلاة عليه.

٧- عن أنسٍ رضي الله عنه قال: سمعنا -يعني وهم في تبوك- صوتًا يقول: اللهمَّ اجعلني مَن أُمَّة محمَّدٍ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم المرحومة، المغفور لها، المُستجاب لها، فقال النبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «**يا أنس انظر ما هذا الصوت**». قال أنسٌ: فدخلت الجبل، فإذا رجلٌ عليه ثيابٌ بيضٌ، أبيض الرأس واللحية، طوله أكثر من ثلاثمائة ذراعٍ، فلما رآني قال: أنت خادم رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم؟ قلت: نعم. قال: ارجع إليه وأقرأه السَّلام، وقل له: أخوك إلياس[١] يريد أن يلقاك، فرجعت إلىٰ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله

---

(١) الكلام في حياة إلياس وبقائه إلىٰ اليوم كثيرٌ وشهيرٌ، نذكر بعضه تتميمًا للفائدة: قال السعد في "شرح العقائد النسفية": ذهب العظماء من العلماء إلىٰ أنَّ أربعةً من الأنبياء في زمرة الأحياء: الخَضِر وإلياس في الأرض، وإدريس وعيسىٰ في السماء.

ورویٰ الثعلبيُّ عن عبدالعزيز بن أبي روَّاد قال: إنَّ الخَضِر وإلياس يصومان شهر

رمضان ببيت المقدس ويوافيان الموسم -يعنى الحج- كلَّ عامٍ. وروى -أيضًا- عن رجلٍ من أهل عسقلان: أنه كان يمشي بالأردن عند نصف النهار فرأى رجلًا فقال: يا عبدالله مِن أنت؟ فقال: أنا إلياس، فقال: فوقعت عليَّ رعدة شديدة، فقلت له: ادعُ الله لي أن يرفع عنِّي ما أجد حتى أفهم حديثك وأعقل عنك، قال: فدعا لي بثمان كلماتٍ وهي: يا بر، يا رحيم، يا حنَّان، يا منَّان، يا حيي، يا قيوم، ودعوتين بالسريانية لم أفهمهما -قيل: هما: يا هيا، شراهي- فرفع الله عنِّي ما كنت أجد، ووضع كفه بين كتفي فوجدت بردها بين ثديي، فقلت له أيوحى إليك اليوم؟ فقال: منذ بعث الله محمَّدًا -صلَّى الله عليه وآله وسلَّم- رسولًا فإنه لا يوحى إليَّ.

فقلت له: فكم من الأنبياء اليوم أحياء؟ قال: أربعة: اثنان في الأرض، واثنان في السماء، أمَّا اللذان في الأرض: فإلياس والخَضِر، وأمَّا اللذان في السماء: فعيسى وإدريس، قلت: كم الأبدال؟ قال: ستون رجلًا: خمسون منهم من لدن عريش مصر إلى شاطئ الفرات ورجلان بالمصيصة ورجلان بعسقلان وستة في سائر البلدان، كلما أذهب الله واحد منهم جاء بآخر مكانه، وبهم يدفع الله عن الناس البلاء، وبهم يمطرون.

قلت: فالخَضِر أين يكون ؟ قال: في جزائر البحر، قلت له: هل تلقاه؟ قال نعم قلت: أين؟ قال بالموسم. قلت: فما يكون حديثكما؟ قال يأخذ من شعري وآخذ من شعره، قال الرجل: وكان ذلك حين جرى بين مروان بن الحكم وبين أهل الشام القتال .

قلت: فما تقول في مروان بن الحكم؟ قال: رجلٌ جَبَّار عاتٍ على الله تعالى، والقاتل والمقتول والشاهد في النَّار، قلت: فإني قد شهدت ولم أطعن برمحٍ ولا رميت بسهمٍ ولم أضرب بسيفٍ، وأنا أستغفر الله من ذلك المقام أن أعود إلى مثله أبدًا، قال: أحسنت، فهكذا فكن.

قال: فبينما أنا وهو قاعدان، إذا وضع بين يديه رغيفان أشد بياضًا من الثلج، فأكلت

وسلَّم فأخبرته فجاء صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يمشي وأنا معه، حتىٰ إذا كنت منه قريبًا تقدَّم النبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم وتأخَّرت أنا، فتحدَّثا طويلًا

أنا وهو رغيفًا وبعض الآخر، ثُمَّ رفعت رأسي وقد رفع باقي الرغيف الآخر، فما رأيت أحدًا وضعه ولا رأيت أحدًا رفعه، قال: وله ناقة ترعىٰ في وادي الأردن فرفع رأسه إليها فلما دعاها جاءت وبركت بين يديه فركبها، فقلت له: إني أريد أن أصحبك، قال إنك لا تقدر علىٰ صحبتي، قال: فقلت له: إني خلو لا زوجة ولا عيال، قال: تزوَّج، وإياك والنساء الأربع: الناشزة، والمختلعة، والملاعنة، والبرمة. وتزوَّج ما بدا لك من النِّساء، قال: فقلت إني أحبُّ أن ألقاك، قال: إذا رأيتني فقد لقيتني إني أعتكف في بيت المقدس في شهر رمضان، ثُمَّ حالت بيني وبينه شجرة، فوالله ما أدري كيف ذهب؟

قلت: لم يثبت حديثٌ عن النبيِّ -صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم- يفيد بقاء إلياس أو الخَضِر أو إدريس حيًّا إلي اليوم، وكل ما في الباب عن الخَضِر وإلياس آثارٌ عن بعض التابعين وأقوال جماعةٍ من الصوفيين.

وقد ذكر النوويُّ: أنَّ جمهور العلماء ومعهم الصوفية علىٰ أنَّ الخَضِر حيٌّ إلىٰ اليوم، وجاء في "صحيح مسلم" في حديث الدَّجَّال -في الرجل الذي يقتله الدَّجَّال ثُمَّ يُحييه ثُمَّ لا يقدر علي قتله- قال الراوي حديث الدَّجَّال: بلغنا أنَّ هذا الرجل هو الخَضِر.

وكذلك إلياس جاءت فيه أقوال عن كثيرٍ من العلماء والصالحين أنهم قابلوه وسألوه عن أشياء فأجابهم عنها، وقد قيل: إنَّ إلياس هو إدريس عليهما السلام، أمَّا عيسىٰ عليه السَّلام: فالآيات والأحاديث تفيد بقاءه حيًّا إلىٰ حين نزوله ليقتل الدَّجَّال ثُمَّ يموت ويدفن في الحجرة الشريفة بجانب عمر رضي الله عنه. انظر كتابنا "عقيدة أهل الإسلام في نزول عيسىٰ عليه السلام".

فنزل عليهما من السماء شيءٌ شبه السفرة ودعواني فأكلت معهما قليلًا، فإذا فيها كمأةٌ ورمَّانٌ وحوتٌ وتمرٌ وكرفسٌ فلمَّا أكلت قمت فتنحَّيت، ثُمَّ جاءت سحابة فاحتملته وأنا أنظر إلىٰ بياض ثوبه فيها.

رواه الحاكم في "المستدرك"، وهو حديثٌ موضوعٌ كما قال الحافظ ابن كثيرٍ وغيره. وممَّا يدل علىٰ وضعه وكذبه أنه مخالفٌ لحديث "الصحيحين" في طول آدم عليه السَّلام، فقد قال النبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «**خَلَقَ اللهُ آدمَ على صُورَتِهِ**[1] **طُولُهُ سِتُّون ذِراعًا، ثُمَّ لم يزل الخَلْق يتناقصُ حتَّى انتهى إلى ما هو عليه اليوم**». فكيف يكون طول إلياس أكثر من ثلثمائة ذراعٍ؟

والعجب من الحافظ السيوطيِّ حيث ذكر حديث إلياس هذا في الخصائص الكبرىٰ مع التزامه أن يصونها عن الحديث الواهي والموضوع؟!

ما يؤخذ من القصة

يؤخذ منها أمور:

١ - استحباب كتمان حاجةٍ يريدها الشخص والتورية بغيرها، ألا ترىٰ إلىٰ النبيِّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم كان إذا أراد غزوة ورَّىٰ بغيرها؛ لأن كتمان الحاجة أدعىٰ إلىٰ إنجاحها، وفي حديثٍ ضعيفٍ: «**استعينوا على إنجاح حوائجكم بالكِتمان**». ويقول عمر رضي الله عنه: من كتم سِرَّه مَلَك أمره.

وأيضًا، إخفاء الغزو والتورية بغيره ضرب من المكيدة المطلوبة في الحرب.

---

(١) أي صورة آدم. يعني: أنه لم يتطور من نطفة إلىٰ علقة مثل أولاده، ولا تطور من قرد كما يزعم داروين.

٢- أنَّ من سمع غيبةً في مسلمٍ دافع عنه، فإنَّ الرجل لَمَّا اغتاب كعب بن مالكٍ ردَّ عليه معاذ بن جبلٍ رضي الله عنه بقوله: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلَّا خيرًا. وفي الحديث «**مَن رَدَّ عن عِرْضِ أخيه رَدَّ الله عن وَجهِهِ النَّار يومَ القيامةِ**».

٣- أنَّ المسلم إذا قَدِمَ مِن سَفَرٍ يستحبُّ له أن يبدأ بالمسجد فيُصَلِّي فيه ركعتين شكرًا لله علىٰ عودته إلىٰ أهله وبلده، ويتأكَّد الاستحباب إذا كان السَّفَر لطاعةٍ كحَجٍّ أو جهادٍ أو صلة رَحَمٍ أو سعيٍ في صُلْحٍ بين جماعةٍ مُتخاصمين، أو نحو ذلك.

٤- أنَّ العاصي يصح هجره تأديبًا؛ لأن النبيَّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم نهىٰ المسلمين عن تكليم كعبٍ وصاحِبَيه.

قال الخطابي في "معالم السنن" علىٰ قول كعبٍ: «ونهىٰ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم عن كلامنا أيها الثلاثة»، ما نصُّه: «فيه مِن العِلْم أن تحريم الهجرة بين المسلمين أكثر من ثلاثٍ إنما هو فيما يكون بينهما من قبل عتبٍ وموجدةٍ، أو لتقصير في حقوق عشرةٍ ونحوها دون ما كان من ذلك في حقِّ الدِّين، فإن هَجْرة أهل الأهواء والبدعة دائمة علىٰ مر الأوقات والأزمان، ما لم تظهر منهم التوبة والرجوع إلىٰ الحقِّ».اهـ

قلت: تفصيل مسألة الهجر: أنَّ العاصي المُجاهِر بالمعصية أو المُصرُّ علىٰ فعلها يُهجَر بعد نهيه وإسداء النصيحة له، وكذلك المُبتدِع المتفق علىٰ ابتداعه مثل الخارجي والمعتزلي، يُهجَر بعد مناقشته أيضًا لعله يتوب ويقلِع، أمَّا أن يختلف شخصان في مسألةٍ فرعيَّةٍ كالتوسُّل وما أشبهه ممَّا يختلف فيه الرأي

وتتجاذب الأدلَّة فلا يصح الهجر بسببه؛ لأنه لا عصيان فيه ولا ابتداع، ومن هجر صاحبه بسبب ذلك كان آثمًا عاصيًا، فإن كان المهجور قريبًا له جمع إلى إثم الهجر إثم قطيعة الرَّحِم، ولا حُجَّة في هجر عائشة رضي الله عنها لعبدالله بن الزبير؛ لأنه اجتهادٌ منها لم تستند فيه إلى نصٍّ، وقد قال لها عبيد بن عمير: إنَّ حديثًا أخبرتنيه عن النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: أنه نهى عن الصُّرْم[1] فوق ثلاثة أيامٍ، فلم تقبل منه لكنها لم تبد دليلًا على إبائها، ونحن لا يمكننا أن نأخذ بفعل مجتهدٍ أو قوله وندع حديثًا صحيحًا يخالفه.

٥- أن توجيه الخطاب للمسلمين لا يشمل المسلمات، فإنه صلَّى الله عليه وآله وسلَّم نهى المسلمين عن تكليم كعبٍ وصاحبيه، وكان أزواجهم وقريباتهم يكلمنهم؛ لأن النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم بعث إليهم أن يعتزلوا نساءهم بعد مرور أربعين يومًا من نهي المسلمين عن تكليمهم، وأذن لامرأة هلال بن أميَّة أن تخدمه من غير أن يقربها.

٦- لإمام المسلمين أن يُعَزِّر بعض العصاة بنهي الناس عن الكلام معه، وقد أمر عمر رضي الله عنه بهجر صبيغ -الذي كان يسأل عن مشكلات القرآن وتشابهه- فكان لا يُكلِّمه أحدٌ في المدينة، أمَّا أمر العاصي باعتزال امرأته لمدَّة مُعيَّنة فلا يجوز للإمام وإنما هو من خصوصيات النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم[2].

---

(١) الصُّرْم: بضم صاد وسكون الراء: المقاطعة والهَجر.

(٢) لأن عقد النِّكاح يبيح للرجل الاستمتاع بزوجه، ولا يملك أحد إيقاف مقتضيات العقد إلَّا الشارع.

٧ ـ أنَّ قول الرجل لامرأته: «الحقي بأهلك» لا يكون طلاقًا إلَّا بقرينةٍ تدل عليه.

٨- استحباب سجود الشُّكْر لحدوث نعمةٍ؛ لقول كعبٍ: «فخررت ساجدًا»، وقد صَحَّ سجود الشُّكْر من فعل النبيِّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم حين بشَّره جبريل عليه السَّلام بأنَّ مَن صَلَّىٰ عليه مَرَّةً صلَّىٰ الله عليه عشرًا.

٩- أنَّ سجود الشكر يصح في وقت الكراهة، فقد سجد كعبٌ بعد صلاة الفجر قبل طلوع الشمس، وهو وقتٌ تُكْرَه فيه الصَّلاة.

١٠- استحباب التهنئة بحدوث نعمةٍ دينيَّةٍ، فقد بشَّر النبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم كعبًا بتوبة الله عليه، وبشَّره الصحابة أيضًا.

١١- استحباب إعطاء البشير هديَّة جزاء بشارته، فقد أعطىٰ كعبٌ للذي بَشَّر بتوبة الله عليه -وهو حمزة بن عمرو الأوسي- ثوبيه.

١٢- جواز القيام للداخل علىٰ سبيل الإكرام والمُجاملة، فقد قام طلحة لكعبٍ وهَنَّأه، وكان النبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم آخىٰ بينهما، ولم يصح حديثٌ في النَّهي عن القيام.

وحديث: «**مَن أَحَبَّ أن يتمثَّل له الرِّجال قيامًا فليتبوَّأ مَقْعَدَهُ مِن النَّار**». لا ينهىٰ عن القيام ولكن ينهىٰ عن حُبِّ الشخص قيام الناس له؛ لأنه تعاظم وتَكَبُّرٌ[1].

١٣- استحباب إخراج جزءٍ من المال صدقةً لله تعالىٰ إذا حَدَثَ للمسلم

---

(١) والذين يستدلون به علىٰ تحريم القيام للشخص واهمون مخطئون.

فَرَجٌ مِن شِدَّةٍ، أو شفاء من مرضٍ، أو نحو ذلك.

١٤- أنه لا يجوز التصدُّق بالمال كله، فقد قال كعبٌ: يا رسول الله إنَّ من توبتي أن أنخلع من مالي صَدَقةً إلى الله وإلى رسوله، فقال رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: «**أمْسِك عليك بعضَ مالِك فهو خيرٌ لك**».

١٥- قول كعبٍ: «من عندك يا رسول الله أم من عند الله؟» وجواب النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم بقوله: «**لا، بل مِن عند الله عزَّ وجلَّ**». يدل على أنه عليه الصَّلاة والسَّلام كان يجتهد.

إشكال والجواب عنه

صَحَّ في الحديث أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قال لعمر رضي الله عنه: «**وما يُدريك لعلَّ اللهَ اطَّلَعَ على أهْلِ بَدْرٍ فقال: اعْمَلُوا ما شِئْتُم فقد غَفَرْتُ لَكُمْ**».

وفي هذا الحديث أمر النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم بهجر مرارة بن الربيع وهلال بن أمية وهما بَدْرِيَّان، والحديث المذكور يقتضي أنهما مغفورٌ لهما، فكيف يُجمع بين هذين الحديثين؟

والجواب: أنَّ حديث: «**لعلَّ الله اطَّلَعَ على أهلِ بدرٍ**». لا يفيد إباحة المعصية للبَدْرِيِّين[1]، لكنه يفيد أنه إن وقعت منهم معصيةٌ غفرها الله لهم.

وهذا هو ما حصل في غزوة تبوك فقد غفر لهما تخلفهما، وهكذا كلما حصل

(١) لأن الشارع لا يبيح المعصية للمكلَّف ولو بلغ نهاية درجات القُرْب، بل كلَّما ازداد قربًا من الله يضاعف عليه إثْم المعصية، اقرأ قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾ [الأحزاب: ٣٠].

من بدريٍّ معصيةٌ جزمنا بأنَّ الله يغفرها له، ولكن لا نجزم بغفران معصية غير البدريِّ، بل نرجو ونظن فقط، والله تعالىٰ أعلم.

العبرة من القصة

١- قد يَزِلُّ بعض الفضلاء والصُّلَحاء مع عُلُوِّ رتبهم في الفضل والصلاح كما زلَّ كعب ابن مالكٍ وهو عقبي، ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية وهما بدريَّان، تحقُّقًا بمعنىٰ الضعف المستولي علىٰ عامَّة البشر إلَّا من عصم الله ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

لكنهم لا يصرُّون علىٰ زللهم ولا يستحسنون قبيح عملهم، بل يبادرون إلىٰ التوبة والاستغفار ملتجئين إلىٰ الله بصدقٍ وإخلاصٍ ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران: ١٣٥].

فليس الشأن ألَّا يعصي الإنسان، ولكن الشأن إذا عصىٰ أن يسرع بالنَّدم والإقلاع عن العصيان، **«لو لم تُذْنِبوا لذهب اللهُ بكم ولجاء بقومٍ يُذْنِبون فيَسْتَغْفِرون فيُغْفَرُ لهم»**.

٢- قد يحدث عن الشرِّ خيرٌ، فقد كان تخلُّف كعبٍ وصاحبيه عن غزوة تبوك وما ترتَّب عليه من الأمر بهجرهم سببًا في نزول القرآن بتوبتهم وشهادته لهم بصِدْق التجائهم إلىٰ الله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾

[التوبة: ١١٨][1]، وهذا شرفٌ كبيرٌ لهم.

ولذا قال النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم لكعبٍ في تهنئته: «**أبشر بخير يومٍ مَرَّ عليكَ منذ ولدتك أمُّك**».

٣- صِدْق الحديث عاقبته حميدةٌ ومآل صاحبه إلى خيرٍ، كما أنَّ عاقبة الكذب وخيمةٌ ومآل الكاذب فضيحةٌ وعارٌ.

كعبٌ وصاحباه صدقوا النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم حين سألهم عن سبب تخلُّفهم عنه وتحمَّلوا لوم اللائمين وهجر المسلمين، فآل أمرهم أن طهرهم الله بالتوبة وأثنى عليهم بالصدق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

والمنافقون كذبوا حين اعتذروا وهربوا من عتاب ساعةٍ وموجدة شهرٍ، فأنزل الله فضيحتهم وخزيهم على مدى الدهر: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٩٥ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٥ - ٩٦].

---

(١) و«ظنوا» أي: علموا، وإطلاق الظنِّ بمعنى العِلْم شائعٌ مثل: ﴿ٱلْخَٰشِعِينَ ۝٤٥ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٥-٤٦]، ﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٠]، ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾ [القيامة: ٢٨].

٧- نذر

عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: بينما النبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يخطب، إذا هو برجلٍ قائم فسأل عنه؟ فقالوا: أبو إسرائيل، نَذَرَ أن يقوم في الشمسِ ولا يَقْعُدَ، ولا يَسْتَظِلَّ ولا يتكَلَّم، وأن يصومَ. فقال النبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «**مُرُوه فليَتَكَلَّمْ وليَسْتَظِلَّ وليَقْعُدْ، وليُتِمَّ صَوْمَهُ**». رواه البخاريُّ في "صحيحه".

المعنى

النَّذْر: التزام عمل عبادةٍ تقرُّبًا إلىٰ الله تعالىٰ، وهو نوعان:

نذر بِرٍّ: وهو التزام عبادةٍ غير موقوفةٍ علىٰ شرطٍ كما في الحديث، وكقول القائل: نذرتُ صلاة ركعتين لله، أو لله عليَّ أن أتصدَّق بدينارٍ.

ونذر لجاج: وهو الموقوف علىٰ شرط نحو: إن قضىٰ الله حاجتي فلله عليَّ صدقة، أو إن رزقني الله مالًا فلله عليَّ نذرٌ أن أحجَّ منه.

والوفاء بنوعيه واجبٌ، ومن لم يفِ به كان آثمًا، وقد مدح الله تعالىٰ الموفين به في قوله سبحانه: ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٦ – ٧].

والنذر كان معروفًا عند العرب في الجاهلية حيث كانوا ينذرون لأصنامهم أنواعًا من الطاعات في زعمهم، فلما جاء الإسلام وأبطل عبادة الأصنام أبطل النذر لها، وجعله خاصًّا بالله تعالىٰ؛ لأنه عبادة، وهو داخل في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

فالنذر: عقد يعقده العبد مع ربِّه بتقديم طاعةٍ: إمَّا ابتداءً وإمَّا بعد حصول شرطٍ، ومِن ثَمَّ كان الوفاء به واجبًا بعموم الآية المذكورة.

ما يؤخذ من الحديث

يؤخذ منه أمور:

١- أنَّ النذر لا ينعقد في الأمور العادية غير المشروعة كالقيام في الشمس وعدم الاستظلال من حَرِّها.

٢- نسخ التعبُّد بالصمت الذي كان مشروعًا قبلنا، فقد حكى الله عن مريم أنَّ جبريل عليه السَّلام قال لها: ﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦].

يؤخذ من الآية أنَّ الصوم عن الكلام كان مشروعًا عندهم.

وفي "سنن أبي داود" عن عليٍّ عليه السلام قال: حفظت من رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: «**لا يُتْمَ بعد احْتلامٍ ولا صُمَاتَ[1] يومٍ إلى الليلِ**».

قال الخطابيُّ: «كان مِن نُسُكِ الجاهليَّة الصُّمات، فنُهوا في الإسلام عن ذلك وأُمِروا بالذِّكر والحديث بالخير».

وفي "صحيح البخاري" عن قيس بن أبي حازمٍ قال: دخل أبو بكرٍ

---

(١) صُمات: بضم الصاد، ومعنى الحديث: أنه لا يجوز سكوت يومٍ إلى الليل على وجه التعبُّد والتقرُّب إلى الله تعالى، والأحاديث الثابتة في فضل السكوت مثل حديث "الصحيحين": «**ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليسكت**». يراد بها سكوت مقيَّد، وهو السكوت عن الشرِّ فهو مطلوبٌ شَرْعًا وفيه ثوابٌ لمن قصده.

الصِّدِّيق -رضي الله عنه- علىٰ امرأةٍ من أحمس يقال لها زينب فرآها لا تتكلَّم، فقال: ما لها لا تتكلَّم؟ فقالوا: حَجَّتْ مُصْمِتةً، فقال لها: تكلَّمي، فإنَّ هذا لا يحل، هذا من عمل الجاهلية، فتكلَّمت.

وهذا ممَّا اتفقت فيه عادة الجاهلية مع شريعة الإسرائيليين، ويجوز أن يكون العرب أخذوه عن بعض اليهود المقيمين بالشام أو اليمن.

٣- أنَّ النَّذْر إذا اشتمل علىٰ أشياء مشروعةٍ وأشياء غير مشروعةٍ، لزم المشروع وبطل غيره؛ لأنَّ النبيَّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أمر أبا إسرائيل بإتمام صومه المشروع، وأبطل غيره.

وإذا نذر الشخص فعل معصيةٍ، وجب عليه ترك الوفاء بالنذر لقول النبيِّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «**مَن نَذَرَ أن يُطِيعَ اللهَ فليُطِعْه، ومَن نَذَرَ أن يَعْصِي اللهَ فلا يَعْصِهِ**». ولأن القصد مِن النَّذْر التقرُّب إلىٰ الله تعالىٰ، والمعصية لا يجوز التقرُّب بها؛ لأنها منهيٌّ عنها.

ومِن نَذْرِ المعصية: نَذَرَ ذبح خروفٍ مثلاً لوليٍّ من الأولياء، أو نذر مبلغٍ من المال يضعه في صندوق ضريحه، فلا يجب الوفاء به، بل يجب علىٰ الناذر أن يتصدَّق بذلك المال المنذور علىٰ الفقراء والمساكين.

وذبح الخروف أو العجل عند الضريح حرامٌ؛ لأن النُّسُك لا يكون إلَّا بمكة، وإذا لم يجز النُّسُك عند الروضة الشريفة فعدم جوازه عند ضريح وليٍّ أولىٰ[1]، فإن قال: أردت التصدُّق به علىٰ روح الوليِّ، قلنا: فاذبحه في بيتك أو

(١) من المحرم أيضًا ما جرت به العادة عند بعض المصريين أنهم يذبحون عِجْلًا تحت

اشتره مذبوحا ثُمَّ تصَدَّق به علىٰ روح من شئت.

فإن قيل: فما الفرق بين ذبح الخروف في البيت أو في دكان، وبين ذبحه عند ضريح وليٍّ؟

قلنا: ضريح الوليِّ يُقَدِّسه العامَّة، ويقصدونه بالزيارة والتوسل، وهو عندهم أفضل من أي[1] موضعٍ آخر، فالذبح عنده يكون في معنىٰ النُّسُك، وكذلك يطوفون به، والطواف عبادةٌ خاصَّةٌ بالبيت الحرام لا تجوز بغيره ولو قبر النبيِّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم.

فإن قيل: فكيف نذرت عائشة رضي الله عنها أن تهجر ابن أختها عبدالله بن الزبير فلا تكلِّمه أبدًا؟ قلنا: كان ذلك اجتهادًا منها أخطأت فيه، لكن لا يصح تقليدها.

ونحن نذكر القصة بتمامها ونبيِّن وجه الصواب فيها:

ثبت في "صحيح البخاري" عن عوف بن مالك بن الطُّفيل: أنَّ عائشة رضي الله عنها حُدِّثت أنَّ عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما قال في بيعٍ أو عطاءٍ أعطته عائشة رضي الله عنها: والله لتنتهينَّ عائشة أو لأحجرنَّ عليها، فقالت: أهو قال هذا؟ قالوا: نعم. قالت: هو لله عليَّ نذرٌ ألَّا أكلِّم ابن الزبير أبدًا. فاستشفع إليها ابن الزبير حين طالت الهجرة، فقالت: لا والله لا أشفع فيه أبدًا ولا أتحنث إلىٰ نذري. فلما طال ذلك علىٰ ابن الزبير كلَّم المِسْوَر بن مَخْرمة

نعش الميت وهم خارجون به إلىٰ المقبرة.

(١) وقد يكون الضريح في قِبلة المسجد، فيتعمد بعض الجهَّال أن يستقبله في صلاته تبرُّكًا ولا يدري أن هذا يبطل صلاته.

وعبدالرحمن بن الأسود بن عبد يغوث وقال لهما: أنشدكما الله لما أدخلتماني على عائشة رضي الله عنها فإنها لا يحل لها أن تنذر قطيعتي.

فأقبل به المِسْور وعبدالرحمن حتى استأذنا على عائشة فقالا: السَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أندخل؟ قالت عائشة: ادخلوا. قالوا: كلنا؟ قالت: نعم، ادخلوا كلكم -ولا تعلم أنَّ معهما ابن الزبير- فلما دخلوا دخل ابن الزبير الحجاب فاعتنق عائشة رضي الله عنها، وطفق يناشدها ويبكي، وطفق المِسْوَر وعبدالرحمن يناشدانها إلَّا كلمته وقبلت منه، ويقولان: إنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم نهى عمَّا قد عملت من الهجرة ولا يحل لمسلمٍ أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليالٍ، فلمَّا أكثروا عليها من التذكرة والتحريج، طفقت تذكرهما وتبكي وتقول: إني نذرت والنذر شديدٌ، فلم يزالا بها حتى كلَّمت ابن الزبير، وأعتقت في نذرها ذلك أربعين رقبة، وكانت تذكر نذرها بعد ذلك فتبكي حتى تبل دموعها خمارها.

فإذا تأمَّلت هذه القصة وجدتها تفيد أشياء:

١ - أنَّ عائشة رضي الله عنها لم تهجر عبدالله بن الزبير لمعصيةٍ اقترفها، وإنما غضبت من اعتراضه على تصرُّفٍ من تصرُّفاتها، وكان يمكن أن تهجره عدَّة أيامٍ حتى يهدأ غضبها، لكنها أسرعت بنذر هجره لِحِدَّةٍ كانت فيها ورثتها عن أبيها رضي الله عنهما[1].

٢ - أن ابن الزبير صرَّح بأن عائشة لا يحل لها أن تنذر قطيعته؛ لأن قوله والله لأحجرنَّ عليها لا يستوجب ذلك.

---

(١) كان أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه فيه حِدَّةٌ معروفةٌ.

٣- أنَّ المِسْوَر وعبدالرحمن قالا لها: إنَّ النبيَّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم نهىٰ عن الهجرة، وأنه لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليالٍ، فلم تذكر لهما حديثًا يخصص ما أبدياه من الدليل، وإنما اعتذرت بالنذر، وغاب عنها أنَّ هذا النذر لا يجب الوفاء به؛ لأنه يشتمل علىٰ قطيعةٍ، لكنها اجتهدت وأخطأت، فهي مأجورةٌ علىٰ اجتهادها غير مؤاخذةٍ بخطئها، ولا يصح تقليدها كما تقدَّمنا؛ لأن النصَّ في تحريم الهجر ثابتٌ عامٌّ لا مُخصِّص له[١].

(تنبيه): مَن نَذَرَ نَذْرًا مطلقًا ولم يعيِّنه -كأن قال: لله عليَّ نذرٌ- وجب عليه كفَّارة يمينٍ وهي: إطعام عشرة مساكين من أوسط الطعام أو كسوتهم أو عتق رقبةٍ، فإن لم يستطع صام ثلاثة أيامٍ.

---

(١) وقد خالفها ثلاثة مجتهدون وهم: ابن الزبير والمسور وعبدالرحمن، وتمسَّكوا في مخالفتهم بعموم النصِّ.

٨- اختيار القائد

عن أبي العباس سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه: أنَّ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال يوم خيبر: «**لأُعْطِينَّ هذه الرَّايةَ غدًا رَجُلًا يَفْتَحُ اللهُ على يَدَيْهِ، يُحِبُّ اللهَ ورَسُولَهُ ويُحِبُّهُ اللهُ ورَسُولُهُ**». فبات الناس يَدُوكُون ليلتهم أيُّهُم يُعْطَاها؟ فلمَّا أصبح النَّاس غَدَوا علىٰ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم كلُّهم يرجون أن يُعْطَاها، فقال: «**أين عليُّ بن أبي طالبٍ؟**» فقيل: يا رسول الله هو يَشْتكِي عَيْنَيهِ، قال: «**فأرسِلُوا إليه**».

فأتىٰ به، فبَصَقَ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم في عَيْنَيهِ، ودعا له فبريء حتَّىٰ كأن لم يكن به وَجَعٌ، فأعطاه الرَّاية. فقال عليٌّ رضي الله عنه: يا رسول الله أقاتلهم حتىٰ يكونوا مثلنا؟ فقال: «**انْفُذْ على رِسْلِكَ حتَّى تَنْزِلَ بساحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إلى الإسلامِ وأخبرهم بما يَجِبُ عليهم مِن حَقِّ الله تعالى فيه، فوالله: لأن يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا واحِدًا خَيْرٌ لك مِن حُمْرِ النَّعَمِ**». رواه الشيخان.

بيان المفردات

خَيْبَر: بفتح الخاء المعجمة وسكون المثنَّاة التحتية وفتح الموحَّدة التحتية، موضع بينه وبين المدينة ثمانية برد، يشتمل علىٰ حصونٍ ومزارعٍ ونخلٍ كثيرٍ.

يَدُوكُون: يخوضون، بوزنه ومعناه.

على رِسْلِكَ: بكسر الراء وفتحها وسكون السين، علىٰ مهلك.

حُمْر النَّعَم: إبلٌ نفيسةٌ من أنفس أموال العرب.

المعنى

كانت غزوة خيبر في المحرَّم سنة سبعٍ من الهجرة على المشهور عند الجمهور، خرج إليها النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم بعد رجوعه من الحديبية، واستنفر الذين شهدوا الحديبية يغزون معه، وجاء المخلَّفون عنه في غزوة الحديبية يريدون الخروج معه إلى خيبر رجاء الغنيمة، فقال: «**لا تخرجوا معي إلَّا راغبين في الجهاد، فأمَّا الغنيمة فلا**». وأمر مناديًا ينادي بذلك، ونزل قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الفتح: ١٥].

وكان الله تعالى وعد رسوله عند منصرفه من الحديبية في (سورة الفتح) التي نزلت هناك، مغانم بقوله تعالى: ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾ [الفتح: ٢٠] الآية، وهي مغانم خيبر.

وفي المسير إليها أشرف الناس على وادٍ فرفعوا أصواتهم بالتكبير: الله أكبر الله أكبر لا إله إلَّا الله، فقال لهم النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: «**ارْبَعُوا على أنفُسِكُم، إنَّكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا، إنكم تدعون سميعًا قريبًا وهو معكم**».

ولمَّا أشرف صلَّى الله عليه وآله وسلَّم على خيبر -وكان صباحًا- قال لأصحابه: «قفوا». ثُمَّ قال: «**اللهمَّ ربَّ السَّمواتِ وما أظْلَلْنَ، وربَّ الأرْضِين وما أَقْلَلْنَ، وربَّ الشَّياطين وما أَضْلَلْنَ، وربَّ الرِّياحِ وما ذَرَيْنَ، فإنَّا نسألك مِن خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك مِن شَرِّها وشَرِّ أهلها**

وشَرِّ ما فيها. أَقْدِمُوا باسْمِ الله».

وكان صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يقول هذا الدعاء لكلِّ قريةٍ دخلها.

ولَمَّا خرج اليهود في الصباح بفُئوسهم ومَكاتِلِهم رأوا النبيَّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قالوا: محمدٌ والخَمِيسُ، وأدبروا هَرَبًا، فقال صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «**الله أكبر خَرِبَتْ خَيْبَرَ، إنَّا إذا نَزَلْنا بساحِةِ قوم فسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرين**». ونزل صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قريبًا من حِصْن النَّطاة -وهو من حصون خيبر- فقال له الحُبَاب بن الْمُنذِر: يا رسول الله إنك نزلت منزلك هذا، فإن كان عن أمرٍ أمرت به فلا نتكلَّم، وإن كان الرأي تكلَّمنا، فقال رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «**هو الرأي**». فقال: يا رسول الله إنَّ أهل النَّطاة لي بهم معرفةٌ، ليس قومٌ أبعد مدىٰ سهمٍ منهم، ولا أعدل رميةً منهم، وهم مرتفعون علينا وهو أسرع لانحطاط نبلهم، ولا نأمن من بياتهم يدخلون في حمرة النخل، تحوَّل يا رسول الله. فقال صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «**أَشَرْتَ بالرأي، إذا أَمْسَينا إن شاء الله تحوَّلنا**».

ودعا محمد بن مسلمة فقال له: «**انظر لنا مَنْزِلًا بعيدًا**». فطاف محمد بن مسلمة رضي الله عنه وقال: يا رسول الله وجدت لك منزلًا، فقال صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «**على بركة الله**». وتحوَّل لَمَّا أمسىٰ وأمر الناس بالتحوُّل، وبنىٰ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم مسجدًا هناك -صلَّىٰ فيه طول مقامه محاصِرًا لخيبر- وقبل بدء القتال قال النبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم للصحابة: «**لا تتمنُّوا لِقاءَ العَدُوِّ، واسألوا الله العافية، فإنكم لا تَدْرُون ما تُبتلون به منهم، فإذا لقيتموهم فقولوا: اللهمَّ أنت ربُّنا وربُّهم، نواصينا ونواصيهم بيدك، وإنما تقتلهم**

أنت»[١]. ثُمَّ ألحَّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم علىٰ حصن ناعم من حصون النَّطاة بالرمي ويهود تقاتل، والنبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم علىٰ فرسٍ -يقال له: الظِّرْف[٢]- وعليه دِرْعَان ومِغْفَرٌ وبَيْضَةٌ وفي يده قناةٌ وترسٌ، واستمرَّ القتال عِدَّة أيامٍ، دفع النبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم خلالها اللواء لرجلٍ من المهاجرين فرجع ولم يصنع شيئًا، ثُمَّ دفعه إلىٰ آخَر من المهاجرين فرجع ولم يصنع شيئًا، فقال النبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «**لأُعْطِيَنَّ هذه الرَّايةَ غدًا رجلًا يَفْتَحُ اللهُ على يَدَيْهِ، يحبُّ اللهَ ورسولَهُ ويُحِبُّه اللهُ ورسولُهُ**». فبات الناس يخوضون: أيهم يكون ذلك الرجل؟ حتىٰ قال عمر رضي الله عنه: ما أحببت الإمارة إلَّا ذلك اليوم، وكان عليٌّ رضي الله عنه قد تخلَّف بالمدينة ثُمَّ لِحِقَ بهم في خيبر، وكان أرمد شديد الرمد، فلمَّا أصبحوا سأل رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم عن عليٍّ عليه السَّلام؟ فقيل له: إنه يشتكي عينيه، فقال: «**مَن يأتيني به؟**» فذهب إليه سلمة بن الأكوع رضي الله عنه وأخذ بيده يقوده حتىٰ أتىٰ به النبيَّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قد عصب عينيه، فبصق فيهما -يعني نفث- ودعا له فبريء كأن لم يكن به وجعٌ قطُّ، وأعطاه الراية -تدعىٰ العقاب وكانت سوداء من بردٍ لعائشة رضي الله عنها- فذهب إلىٰ ميدان القتال، وفُتِحت خيبر علىٰ يديه.

---

(١) هذا مطابق لقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].

(٢) بكسر الطاء وسكون الراء: الكريم من الخيل.

ما وقع في غزوة خيبر

وقع في هذه الغزوة أشياء:

١- لَمَّا توجَّه عليٌّ -رضي الله عنه- إلى حصن ناعم ركز الراية تحت الحصن، فاطلع يهوديٌّ من رأس الحصن فقال: من أنت؟ قال: عليُّ بن أبي طالبٍ، فقال اليهوديُّ: علوتم وحقِّ ما نزل على موسى، ثُمَّ خرج إليه أهل الحصن، وكان أول من خرج منهم إليه الحارث -أخو مرحب- وكان معروفًا بالشجاعة، فثبت له علٌّي رضي الله عنه وتضاربا فقتله عليٌّ كرَّم الله وجهه وانهزم اليهود إلى الحصن، فخرج إليه مرحب -أخو الحارث- وهو يقول:

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنِّي مَرْحَبُ شَاكِي السِّلاحِ بَطَلٌ مُجَرَّبُ

فأجابه عليٌّ رضي الله عنه مُرتجزًا أيضًا:

أنا الذي سَمَّتْنِي أُمِّي حَيْدَرَه كَلَيْثِ غَابَاتٍ كَرِيهِ المَنْظَرَه

فحمل عليه مرحب فضربه، فطرح ترسه من يده فتناول عليٌّ كرَّم الله وجهه بابًا كان عند الحصن فتترس به عن نفسه، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى قتل مرحبًا بضربة سيف تلقَّاها مرحب بترسه فقَدَّتْه وشَقَّت المِغْفَر والحجز الذي تحته وعمامتين وفلق هامته، وأخذ السيف في الأضراس.

وإلى ذلك أشار بعض الأدباء بقوله -وأجاد-:

وشَادِنٍ أَبْصَرْتُهُ مُقْبِلًا فقُلْتُ مِن وَجْدِي بِهِ مَرْحَبا

قَدَّ فُؤادِي في الهَوَى قَدَّةً قَدَّ عليٍّ في الوَغَى مَرْحَبا

وفتح اللهُ حصن ناعم، وهو أوَّل حصنٍ من خيبر فُتح على يد عليٍّ عليه السَّلام.

٢- روىٰ البيهقيُّ في "دلائل النبوة" عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما: أنَّ رجلًا أتىٰ النبيَّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم وآمَن وهو علىٰ بعض حصون خيبر، وكان الرجل في غَنَمٍ يرعاها لأهل خيبر فقال: يا رسول الله كيف لي بالغَنَم؟ قال: «**احْصِب وجُوهها، فإنَّ الله سيؤدِّي عنك أمانتك ويردها إلى أهلها**». ففعل، فسارت كلُّ شاةٍ حتَّىٰ دخلت إلىٰ أهلها وهذه معجزةٌ عظيمةٌ.

وذلك الرجل اسمه: أسلم، وقيل يسار، وكان عبدًا حبشيًّا، وبعد إسلامه انضمَّ إلىٰ صفوف المسلمين يُجاهد معهم، فأتاه سهم غَرْبٍ[1] فقتله فاستشهد ولم يسجد لله سجدةً، فأُتي به رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ومعه نفرٌ من أصحابه فأعرض عنه، فقالوا: يا رسول الله لم أعرضت عنه؟ قال: «**إنَّ معه الآن زَوْجَتْيهِ مِن الحُورِ العِين تَنْفُضَان التُّراب عن وَجْهِهِ، وتقولان: تَرَّبَ اللهُ وَجْهَ مَن تَرَّبَ وَجْهَكَ، وقَتَلَ مَن قَتَلَكَ**».

٣- في "صحيح مسلم" عن عليٍّ عليه السَّلام: أنَّ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم نهىٰ عن متعة النِّساء يوم خيبر، ثُمَّ أبيحت بعد ذلك، ثُمَّ حُرِّمت.

قال الإمام الشافعي: لا أعلم شيئًا حُرِّم ثُمَّ أبيح ثُمَّ حُرِّم إلَّا المتعة.

ونقل السهيليُّ وغيره: أنها أبيحت وحُرِّمت ثلاث مرَّاتٍ، وآخر مرة حُرِّمت فيها المتعة غزوة أوطاس ولم تبح بعد ذلك.

وثبت تحريمها في "الصحيحين" وانعقد عليه إجماع أهل السُّنَّة خلافًا للشيعة الإماميَّة، وابن عبَّاسٍ أباحها للضرورة عند الخوف من الزِّنا، وقيل:

---

(١) غرَب، بفتح الراء وإضافة سهم إليه، وبسكون الراء: علىٰ أنه صفة لسهم، ومعناه علىٰ الوجهين: سهمٌ لا يُعرف راميه.

رجع عن ذلك.

ووقعت فيها مناظرة بين القاضي يحيىٰ بن أكثم والخليفة المأمون: ذلك أنَّ المأمون نادىٰ بإباحة المتعة فدخل عليه القاضي يحيىٰ متغيِّر اللون فقال المأمون: مالي أراك مُتغَيِّرًا؟ قال: لما حَدَثَ في الإسلام، قال: وما حدث؟ قال: النداء بتحليل الزِّنا، قال: المتعة زنا؟ قال: نعم المتعة زنا، قال: ومن أين لك هذا؟ قال: من كتاب الله وسُنَّة رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم.

أمَّا الكتاب: فقد قال الله تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ⑤ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ⑥ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ١ – ٧].

يا أمير المؤمنين: زوجة المُتعة مِلْك يمينٍ؟ قال: لا. قال: أفهي الزوجة التي عند الله ترث وتورث ويلحق بها الولد؟ قال: لا. قال: فقد صار متجاوز هذين من العادين.

وأمَّا السنة: فقد روىٰ الزهريُّ بسنده إلىٰ عليٍّ بن أبي طالبٍ كرَّم الله وجهه أنه قال: أمرني رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أن أنادي بالنهي عن المتعة وتحريمها بعد أن كان أباحها. فالتفت الخليفة للحاضرين وقال: أتحفظون هذا من حديث الزهريِّ؟ قالوا: نعم يا أمير المؤمنين، فقال المأمون: أستغفر الله نادوا بتحريم المتعة.

٤- ثبت في "الصحيح" أنَّ النبيَّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم رأىٰ نيرانًا

توقد يوم خيبر قال: «**علام توقد هذه النيران؟**» قالوا: على الحُمُر الإنسيَّة، قال: «**اكْسِرُوها** -يعني القدور- **وأهْرِقُوها**». قالوا: ألا نهريقها ونغسلها؟ قال: «**اغسلوا**». وأمر صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أبا طلحة فنادىٰ: إنَّ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ينهاكم عن لحوم الحمر الأهلية فإنها رجسٌ، فأكفئت القُدُور وإنها لتفور.

وفي "السنن" لأبي داود عن خالد ابن الوليد رضي الله عنه قال: نهىٰ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم عن أكل لحوم الحُمُر الأهلية والبغال والخيل.

وهذا الحديث -وإن كان في سنده كلامٌ- يؤيِّده القرآن، فإن قوله تعالىٰ في معرض الامتنان: ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ [النحل: ٨] يقتضي تحريم الخيل، ولو كانت مباحةً لامتن بأكلها كما امتنَّ به في الإبل إلىٰ جانب امتنانه بشرب لبنها وبركوبها، قال تعالىٰ: ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ ﴾ [النحل: ٥-٧]، وقال سبحانه: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٢١ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ [المؤمنون: ٢١ - ٢٢]

ولهذا قال مالكٌ بتحريم أكل الخيل ودليله قويٌّ راجحٌ.

وذهب الشافعيُّ إلىٰ إباحة أكلها، ودليله ما رواه أبو داود بإسنادٍ علىٰ شرط مسلمٍ عن جابرٍ رضي الله عنه قال: ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال، ولم ينهنا رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم عن الخيل.

وما رواه مسلمٌ عن أسماء رضي الله عنها قالت: نحرنا فرسًا علىٰ عهد رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فأكلناه.

قال السهيليُّ: وحديث الإباحة أصح.

قلت: لكنه ليس بصريحٍ في الإباحة؛ لأن قول جابرٍ: لم ينهنا رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم عن الخيل يحتمل أمورًا:

١- أنه سكت عن النهي.

٢- أنَّ جابرًا لم يسمع النهي الذي سمعه خالد بن الوليد، فنفىٰ بحسب علمه ولم يقل: وأباح النبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم الخيل.

٣- أنه لم ينههم عن الخيل ترخيصًا لهم؛ لأنهم ذبحوا الحُمُر من جوعٍ أصابهم كما ثبت في الرِّوايات الصحيحة فنهاهم عنها لاستقذارها، وسكت عن الخيل ترخيصًا ليتقووا بأكلها في غزوتهم تلك.

ويؤخذ منه: أنَّ المضطر إذا وجد مُحرَّمين أو أكثر تناول أخفها استقذارًا أو أقلها تحريمًا.

وقول أسماء: «نحرنا فرسًا علىٰ عهد رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم» لا يفيد اطلاعه علىٰ ذلك وإقراره، ألا ترىٰ أنهم ذبحوا يوم خيبر حمرًا، وطبخوا لحمها، ولم يعلم النبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم بذلك حتىٰ سأل عنه؟!

ثُمَّ إنَّ قول أسماء يحكي حادثةً فرديةً لم تتكَّرر، فيجوز أنهم ذبحوا فرسًا لضرورة اقتضت ذبحه كما اقتضت الضرورة ذبح الحُمُر يوم خيبر.

٥- في "عيون الأثر" للحافظ الدمياطيِّ: لما فتحت خيبر واطمأنَّ الناس، جعلت زينب ابنة الحارث -أخي مرحب- تسأل: أي الشاة أحب إلىٰ محمدٍ

صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم؟ فيقولون: الذِّراع، فعمدت إلىٰ عنزٍ لها فذبحتها وصَلَتها[١] ثُمَّ عمدت إلىٰ سُمٍّ لا يلبث أن يقتل من ساعته فسمَّت الشاة وأكثرت في الذراعين والكتف، فلما غابت الشمس و صلَّىٰ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم المغرب بالناس انصرف وهي جالسةٌ عند رحله، فسأل عنها؟ فقالت: يا أبا القاسم هديَّةٌ أهديتها إليك، فأمر بها فأخذت منها ووضعت بين يديه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم وأصحابه حضور -أو من حضر منهم- وفيهم بشر بن البراء بن معرور رضي الله عنه، فقال رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «**ادنوا**». فقعدوا، وتناول رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم الذراع فانتهش منها قطعةً فلاكها ثُمَّ ألقاها، وقال للقوم: «**ارفَعُوا أيديكم، فإنَّ هذه الذِّراع تُخبرني أنها مَسْمُومَةٌ**». وكان بشر قد بلع اللقمة، فلم يقم من مكانه حتىٰ توفِّي.

ثُمَّ أرسل رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم إلىٰ تلك اليهوديَّة فقال: «**أَسَمَمْتِ هذه الشَّاة؟**» فقالت: مَن أخبرك؟ قال: «**أخبرتني هذه الذِّراعُ التي في يدي**». قالت: نعم، قال: «**ما حَمَلَكِ على ما صَنَعْتِ؟**» قالت: قتلت أبي وعمِّي وزوجي ونِلْتَ مِن قومي ما نِلْت، فقلتُ: إن كان مَلِكًا استرحنا منه وإن كان نبيًّا فسيخبره، فقتلها ببشرٍ رضي الله عنه.

وأشار إلىٰ هذه المعجزة تقي الدِّين السبكيُّ في "تائيته" بقوله:

وأَحْيَيْتَ عُضْوَ الشَّاةِ بَعْدَ مَماتِها ... فجَاءَ بنُطْقٍ مُوضِحٍ للنَّصِيحَةِ
وقَالَ رسولَ اللهِ لا تَكُ آكِلِي ... فزينبُ سَامَتْنِي الهَوانَ وسَمَّتِ

---

(١) صَلَتها -بفتح الصاد واللام المخففة-: شوتها.

وقال البوصيريُّ في "الهمزية":

ثُمَّ سَمَّتْ له اليَهُودِيَّةُ الشَّاةَ ... وكَمْ سَامَ الشِّقْوَةَ الأَشْقِياءُ

فأَذَاعَ الذِّرَاعُ ما فِيهِ مِن سُمٍّ ... بِنُطْقٍ إِخْفَاؤُهُ إِبْدَاءُ

وبِخُلْقٍ مِنَ النَّبِيِّ كَرِيمٍ ... لمْ تُقاصَصْ بجُرْحِهَا العَجْمَاءُ[1]

وفي "الصحيح": أنَّ النبيَّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال في مرضه الذي توفِّي فيه: «**ما زالت أَكْلَةُ خَيْبَرَ تُعاوِدُني حتَّى كان هذا أوان انقطاع أَبْهُري**». والأَبْهُر: العرق المتعلِّق بالقلب. وبذلك جمع الله له بين النبوة والشهادة فهو صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم نبيٌّ شهيدٌ.

٦- روىٰ أبو نعيم في "الدلائل" عن معاذ بن جبلٍ رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم لَمَّا فتح خيبر أصاب حمارًا أسود، فقال له النبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «**ما اسمك؟**» قال: يزيد بن شهابٍ، أخرج الله من نسل جدِّي ستين حمارًا كل منهم لا يركبه إلَّا نبيٌّ، وقد كنت أتوقعك لتركبني؛ لأنه لم يبقَ من نسل جدي غيري ولا من الأنبياء غيرك، وقد كنت قبلك لرجلٍ يهوديٍّ فكنت أتعثَّر به عمدًا، وكان يجيع بطني ويضرب ظهري، فقال له النبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «**فأنْتَ يَعْفُورٌ**». فكان يبعثه إلىٰ الرجل فيأتي الباب فيقرعه برأسه، فإذا خرج إليه صاحب الدار أومأ إليه: أن أجب رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم، فلما قُبِضَ النبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم جاء إلىٰ بيرٍ كانت لأبي

---

(١) أي: سامحها -صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم- ولم يقتص منها لأنها سمَّته، ولكن لأنها قتلت بسمِّها بشرًا رضي الله عنه.

الهيثم بن التيهان فتردَّىٰ فيها جَزَعًا علىٰ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم.

قال ابن حِبَّان: «هذا خبرٌ لا أصل له وإسناده ليس بشيءٍ».

وقال ابن الجوزيِّ: «لَعَنَ اللهُ واضِعَهُ فإنه لم يقصد إلَّا القدح في الإسلام والإستهزاء به».

وقال الحافظ بن كثير: «هذا شيءٌ باطلٌ لا أصل له من طريقٍ صحيحٍ ولا ضعيفٍ، وسألت شيخنا المِزِّيَّ رحمه الله، فقال: ليس له أصلٌ وهو ضحكةٌ، وقد أودعه كتبهم جماعة منهم القاضي عياض في "الشفا"، والسهيليُّ في "روضه" وكان الأولىٰ ترك ذكره»، ووافقه الحافظ ابن حجرٍ.

وقول الزرقاني في "شرح المواهب": «ليس فيه ما يُنكَر شرعًا، فلا بدع في وقوعه له صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فنهايته الضعف لا الوضع».اهـ.

غير صحيحٍ، بل الحديث واضح النَّكَارة والبُطلان، وما ذكرته هنا إلَّا للتنبيه علىٰ بطلانه.

ما يؤخذ من الحديث

يؤخذ منه أمور:

١ - فضل عليٍّ رضي الله عنه حيث شهد له النبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم بأنه يحبُّ اللهَ ورسولَهُ ويُحبُّه اللهُ ورسولُهُ، واختصَّه بإعطاء الرَّاية مع استشراف الصحابة لها ورجاء كلٍّ واحدٍ منهم أن يكون صاحب هذه المنقبة.

٢- أنَّ عليًّا كرَّم الله وجهه أقوىٰ الصحابة جسمًا، وأشجعهم قلبًا، وأعرفهم بفنون الحرب، وأخبرهم بأصول الطعن والضرب، وإلَّا لما اختاره النبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم لفتح خيبر وهو يعلم أنَّ أهلها فيهم أبطال

حُروبٍ مثل مرحب وأخويه الحارث وياسر، وفيهم رماةٌ مثل أهل حصن النطاة، حتىٰ كان كثيرٌ من قريشٍ يعتقدون أنَّ الصحابة إذا التقوا بأهل خيبر فسيكون مصيرهم الهزيمة.

٣- أنَّ الإمام يختار للمهمَّة التي يريد إنجازها الشخص الكَفِء[١] لها والقادر علىٰ القيام بها، وهذا من النصيحة الواجبة عليه، بحيث لو ولَّىٰ شخصًا عملًا وفي المسلمين من هو أكفأ منه فإنه يكون غاشًّا لهم كما صحَّ في الحديث.

٤- أنَّ المسلم ينبغي له أن يتطلَّع إلىٰ الوظائف الدينية التي يقضي بها مصلحة للإسلام والمسلمين، ألا ترىٰ إلىٰ قوله: «فلما أصبح الناس غدوا علىٰ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم كلهم يرجو أن يُعْطَاها»، وصحَّ في رواية: أنَّ عمر رضي الله عنه قال: «فما أحببت الإمارة إلَّا يومئذٍ»، وما كان منهم ذلك الرجاء إلَّا لأجل أن يتحقَّق لهم حبُّ الله ورسوله وفتح خيبر.

٥- حصول الفتح علىٰ يد عليٍّ كرَّم الله وجهه كما أخبر النبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم وهو يدخل في باب الإخبار بالغيبيَّات[٢].

٦- شفاء عليٍّ من رمده الشديد بنفث النبيِّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ودعائه، وهي معجزةٌ لا شك فيها ذكرها البوصيري في الهمزية بقوله:

وعليٌّ لَمَّا تَفَلْتَ بعَيْنيهِ ... وكِلْتاهُما معًا رَمْداءُ

(١) بفتح الكاف وكسر الفاء: بوزن النظير ومعناه.

(٢) ويدل أيضًا علىٰ أنَّ عليًّا رضي الله عنه كان ميمون النقيبة سعيد الحظِّ، علىٰ نقيض ما قال ابن تيمية في منهاجه عنه: أنه كان مشئومًا مخذولًا، وتلك كلمةٌ فاجرةٌ تنبيء عمَّا في قلب قائلها من حِقْدٍ علىٰ وصيِّ النبيِّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم وأخيه كرَّم الله وجهه.

فغَـدَا نـاظِرًا بعَيْنَـي عُقـابٍ   في غَـزاةٍ لهـا العُقـابُ لِـواءُ

٧- أنَّ المسلمين لا يبدأون الكفَّار بالقتال حتىٰ يدعوهم إلىٰ الإسلام ويُبيِّنوا لهم أحكامه ومحاسنه.

٨- أنَّ إسلام الكافر بالحُجَّة والبرهان أفضل من إسلامه بالسيف والسِّنان لقوله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «**فوالله لأن يهدي اللهُ بك رجُلًا واحِدًا خُيرٌ لك مِن حُمْرِ النَّعَمِ**».

٩- ينبغي أن يكون أمير الجيش عالمًا فصيحًا يعرف أحكام الدِّين ويُبيِّن عن أحكامه وبراهينه، ولهذا اختار النبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم عليًّا عليه السَّلام فقد كان أعلم الصحابة وأفصحهم.

١٠- أنَّ الخليفة يجب عليه أن يراعي فيمن يوليه مجرَّد المصلحة العامَّة ولا يراعي فيه قرابة أو صداقة، فإنَّ النبيَّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم حين أعطىٰ عليًّا الراية راعىٰ فيه أمرين: حب الله ورسوله، وقدرته علىٰ إدارة دفَّة الحرب، بحيث يكون الفتح علىٰ يديه ولم ينظر إلىٰ كونه ابن عمِّه وصِهْرِه.

٩- الاستهانة بالمعصية

عن سالم بن عبدالله بن عمر، عن أبيه: أنَّ أبا بكرٍ وعمر وناسًا جلسوا بعد وفاة النبيِّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فذكروا أعظم الكبائر فلم يكن عندهم فيها علمٌ، فأرسلوني إلىٰ عبدالله بن عمرٍو أسأله؟ فأخبرني: أنَّ أعظم الكبائر شُرْبُ الخَمْرِ، فأتيتهم فأخبرتهم فأنكروا ذلك، ووَثَبُوا إليه جميعًا حتىٰ أتوه في داره، فأخبرهم أنَّ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال: **«إنَّ مَلِكًا مِن ملوك بني إسرائيل أخذ رجلًا فخيَّره بين أن يشرب الخَمْرَ، أو يَقْتُل نفسًا، أو يَزْني، أو يأكُلَ لحم خنزيرٍ، أو يَقتُلوه، فاختار الخَمْرَ، وإنه لمَّا شَرِبَ الخَمْرَ لم يمتنع مِن شيءٍ أرادوه منه»**. وأنَّ رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال: **«ما مِن أحَدٍ يَشْرُبها فتُقْبَل له صلاةً أربعين ليلةً، ولا يَمُوتُ وفي مَثانَتِهِ منها شيءٌ إلَّا حُرِّمتْ بها عليه الجنَّةُ، فإن ماتَ في أربعين ليلةً ماتَ مَيْتةً جاهليَّةً»**.

رواه الطبرانيُّ بإسنادٍ صحيحٍ، وصحَّحه الحاكم علىٰ شرط مسلمٍ.

بيان المفردات

وَثَبُوا: أسرعوا.

مَثَانَتِهِ: موضع تجمُّع بوله.

مَيْتَة جاهليَّةً: مَيتةً علىٰ غير سُنَّة الإسلام.

المعنى

كان ملوك بني إسرائيل -إلَّا القليل منهم- ظلمةً يتَّبعون شهواتهم المحرَّمة، ويُرغِمون بعض الصالحين مِن رعاياهم علىٰ تناول بعض المُحرَّمات ليتخذوا تناول الصالح لمحرَّمٍ وسيلةً إلىٰ التظاهر بالمُحرَّمات والإفراط في

تناولها، وإن كان الرجل الصالح قد تناول منها بطريق الإكراه والتهديد، وأهل المعاصي والفسوق يشعرون بقبح عملهم وازدراء الناس لهم فيحبُّون مشاركة غيرهم لهم خصوصًا الفُضَلاء والصُّلَحاء، ويسعون في تحقيق تلك المشاركة بطريق الإغراء تارةً والتهديد تارةً أخرىٰ، حتىٰ إذا شاركهم مشاركٌ خَفَّ عندهم الشعور بقبح ما هم فيه، وهان عليهم إزراء الناس بهم.

وقد أخبرني شخصٌ كان يشرب الخمر ثُمَّ تاب: أنه إذا حضر مجلس شربه زائرٌ لا يشرب الخمر يضيق بحضوره ويحاول إغراءه علىٰ مشاركته في الشرب، فإن أجابه استراح وانشرح صدره، وإن لم يشرب معه ظَلَّ منحرف المزاج شاعرًا بنقص قَدْرِه عند زائره حتىٰ يستأذن ويفارق المجلس.

علىٰ أساس هذه الظاهرة النفسية عند أهل الفسوق والمعاصي نفهم سرَّ إكراه المَلِك الإسرائيليِّ لذلك الرجل الصالح علىٰ تناول إحدىٰ تلك المحرَّمات، فإنه كان يشعر بقبح شرب الخمر وأكل الخنزير ومباشرة الزِّنا وقتل الولد الذي يكون ثمرة زناه.

وأراد من الرجل الصالح أن يفعل بعض تلك الموبقات حتىٰ يخفَّ عنده وخز النفس ويقل تأنيب الضمير، ويظهر أنَّ ذلك الرجل المُستكْره كان ضعيف الإرادة، واهي العزم، خاف القتل، وآثر اقتراف المعصية علىٰ شرف الاستشهاد في سبيل التمسُّك بطاعة الله ونيل رضاه، فاختار شرب الخمر؛ لظنِّه أنه أهون ما عرض عليه من الكبائر الأربعة، لكنه لما شربها فقد عقله الذي يميز به بين الحسن والقبيح، وبين النافع والضارِّ، وهذه هي خطورة الخمر تطغىٰ علىٰ عقل شاربها وتفقده اتزانه وحياءه ووقاره، فيجترىء علىٰ عظائم

الذنوب وقبائح الأمور، لا يرىٰ فيها شيئًا يثلم دينه أو يجرح حياءه ووقاره، ومن هنا أقدم ذلك الإسرائيليُّ علىٰ تناول ما أُكْره عليه؛ فقَتَل النفس، وزنىٰ، وأكل لحم الخنزير، وهذه الكبائر الثلاثة أكبر من الخمر إثمًا -إذ القتل يلي الكفر، ثُمَّ يليه الزِّنا، ثُمَّ أكل الخنزير- إلَّا أنَّ الخمر بما تستتبعه من المعاصي وبما يترتَّب علىٰ شربها من الموبقات كانت أعظم الكبائر أثرًا.

وسُمِّيت أمَّ الخبائث لأنها تتولَّد عنها، فقد يزني السَّكْران ببعض محارمه، وقد يُطلِّق امرأته ثُمَّ يزني بها أو يقتلها، بل قد تَصْدُر عنه أقوالٌ أو أفعالٌ مُكفِّرة والعياذ بالله تعالىٰ، وقد يصل السكران إلىٰ حالة تجعله مثار ضحك وسخرية.

وذكر بعض العلماء: أنه كان يمر بشارعٍ من شوارع بغداد فوجد سكران ملقىٰ علىٰ الأرض بجانب كناسة، فأتىٰ كلب ورفع رجله وصار يبول، وجعل السكران يتلقىٰ بوله بيده ويمر بهما علىٰ وجهه ويقول للكلب: شكرًا لك لم تكلِّف نفسك؟ ولا غرابة في حصول هذا وشبهه للسكران؛ لأنه بفقده لعقله يصير أشبه بالمجنون، بل أحط من الحيوان.

ما يؤخذ من الحديث

يؤخذ منه أمور:

١- أنَّ لحم الخنزير كان محرَّمًا علىٰ بني إسرائيل كما هو محرَّمٌ علينا، أمَّا القتل والزِّنا والخمر فهي من الضروريَّات الخمس التي اتفقت عليها المِلَل.

٢- أنَّ مَن شرب الخمر لا تقبل صلاته في مدىٰ أربعين ليلةً بعدد الجلد الذي يجب في حدِّها.

٣- أنَّ الكبيرة تهدم عدَّة حسنات، ألا ترىٰ أنَّ شارب الخمر لا تُقبَل له مائتا صلاة -هي عدة صلاة أربعين ليلة- فكيف إذا انضمت إليها كبائر أخرىٰ، لا شك أنها تقضي علىٰ حسناته إن لم تدركه رحمة الله وعفوه، ومِن ثَمَّ جعل الشارع اجتناب الكبائر شرطًا في تكفير الحسنات للصغائر.

ففي "صحيح مسلم" من حديث أبي هريرة، عن النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال: «**الصَّلَواتُ الخَمْسُ، والجُمُعَةُ إلى الجُمُعَةِ، ورمَضَانُ إلى رَمَضانَ مُكَفِّراتٌ لما بينهنَّ إذا اجْتُنِبتِ الكَبائِرُ**».

وفي الحديث الصحيح عن النبيِّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «**أنَّ عابِدًا مِن بني إسرائيل مَكَثَ يعبد الله في صومعةٍ ستين سنةً فأشْرَفَ ذات يومٍ مِن الصَّوْمَعةِ فرأى الأرض مُخْضَرَّةً بالنبات، وأعجبته بهجتها فقال في نفْسِهِ: أنزل وأمشي في هذه الأرض مُتفكِّرًا ومُعْتَبِرًا، فنزل يمشي فقابلته امرأةٌ فكلَّمها وكلَّمته حتَّى غَشِيَها، ثُمَّ نَدِمَ، ونزل يستحم في غديرٍ، فمرَّ به سائلٌ فأشار له إلى رغيفٍ على ثيابه، فأخذه السائل وذهب، ثُمَّ مات العابِدُ، وعُرِضَ على الله ووُزِنَتْ أعماله فرَجَحَتْ تلك الزَّنْية بعبادة ستين سنةً ولم ينفعه إلَّا ذلك الرَّغيف الذي تَصَدَّق به**».

وإنما نفعته هذه الصَّدَقة ورَجَحَتْ علىٰ الزِّنا؛ لأنها جاءت بعد النَّدَم الذي هو توبةٌ.

٤- أنَّ كبار الصحابة قد تخفىٰ عليهم أحاديث وسُنَنٌ توجد عند صغارِهم، فهذا الحديث كان عند عبدالله بن عمرو بن العاص ولم يعرفه أبو

بكرٍ وعمر رضي الله عنهما مع كثرة ملازمتهما للنبيِّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم؛ لأنهما كانا يغيبان عن مجالس النبيِّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم في طلب نفقةٍ لهما ولعيالهما، فتفوتهما أحاديث يحضرها غيرهما.

وقد اعترف عمر رضي الله عنه بهذا فقال في حديثٍ سمعه صحابيٌّ آخَر ولم يسمعه هو: ألهانا الصَّفْقُ بالأسواق.

٥- تواضع الصحابة وطلبهم للعلم ممَّن هو أصغر منهم؛ لأنه قد يوجد من العلم عند الصغير ما ليس عند الكبير، وإنما بعثوا إلىٰ عبدالله بن عمرٍو يسألونه لأنه كان يكتب ما يسمعه من الأحاديث وهم لا يكتبون.

العبرة من هذه القصة

الاستهانة بالمعصية وتهوين شأنها توقع في التهْلُكة، وتؤدِّي إلىٰ غضب الله وعقابه، فذلك الرجل الذي استكرهه المَلِك وخيَّره بين فعل إحدىٰ تلك الكبائر الأربعة أو القتل، استهون منها الخمر ورآها أقلهنَّ إثمًا، وتناولها علىٰ هذا الاعتبار فكان فيها حَتْفُه وضياع دينه.

فيجب علىٰ المسلم ألا يهوِّن معصيةً ولو صغيرةً عسىٰ أن يكون فيها غضب الله.

وقد ضرب النبيُّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم مثلًا للصغائر التي تجتمع علىٰ المسلم فتدخله النَّار بقومٍ مسافرين حضر صنيعهم -أي طعامهم- فجاء ذا بعودٍ، وجاء ذا بعودٍ، فجمعوا حطبًا أنضجوا ما قذفوه فيه.

وقال العلماء: إنَّ الله تعالىٰ أخفىٰ رضاه في طاعته، وغضبه في معاصيه.

ويقول ابن المعتز:

خَلِّ الذُّنوبَ صَغِيرها وكَبِيرها هذا التُّقَىٰ
واصْنَعْ كَماشٍ فَوْقَ أرْضِ الشَّوكِ يَحْذَرُ ما يَرَىٰ
لا تَحْقِرنَّ صَغِيرةً إنَّ الجِبالَ مِن الحَصَىٰ

(تنبيه): وقعت قصة أخرىٰ تشبه هذه القصة:

روىٰ أبي الدنيا في كتاب "ذم المسكر" عن عثمان بن عفَّان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يقول: «**اجْتَبوا أمَّ الخبائث، فإنه كان رجلٌ ممَّن قبلكم يتعبَّد ويَعْتَزل النَّاسَ، فعَلِقَتْهُ امرأةٌ فأرسلت إليه خادمًا: إنَّا ندعوك لشهادةٍ، فدخل، فطَفِقت كلَّما دخل بابًا أغلقته دونه، حتى إذا أفضى إلى امرأةٍ وضيئةٍ جالسةٍ وعندها غلامٌ، وباطيةٌ فيها خمرٌ، فقالت: إنَّا لم ندعك لشهادةٍ ولكن دعوتك لتقتل هذا الغلام، أو تَقَعَ عليَّ، أو تشرب كأسًا مِن الخمر، فإن أبيت صِحْتُ بك وفضحتك، فلمَّا رأى أنه لا بدَّ له من ذلك قال: اسقيني كأسًا مَن الخمر، فسقته كأسًا من الخمر، فقال: زِيديني، فلم يزل حتَّى وَقَعَ عليها وقَتَلَ النَّفْسَ، فاجْتَنِبوا الخمر، فإنه والله لا يجتمع إيمانٌ وإدمان الخمر في صدر رجلٍ أبدًا، ليوشِكَنَّ أحدهما يُخرجُ صاحبه**».

صحَّحه ابن حِبَّان، ورواه البيهقيُّ في "السنن" مرفوعًا وموقوفًا وذكر أنه المحفوظ.

قلت: الموقوف هنا له حكم المرفوع.

أمُّ الخبائث: هي الخمر وهو اسمٌ شرعيٌّ لها[١].

والخبائث: المعاصي، قال تعالىٰ: في وصف نبيِّه: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]؛ لأن كلَّ معصيةٍ خبيثةٌ، وخبثها إمَّا حِسِّيٌّ أو معنويٌّ.

فالحِسِّيُّ: كالدم والميتة، **والمعنويُّ**: كالرِّبا ومهر البغي.

وقد استدل جماعةٌ من المالكيَّة علىٰ تحريم شرب الدُّخان بأنه خبيث الرائحة والطعم فتشمله الآية المذكورة، وتكلَّمتُ علىٰ هذا الموضوع في "خواطر دينية".

وثبت في عِلْم الطبِّ بطريقٍ قطعيٍّ: أنَّ شرب الدُّخان يؤدِّي إلىٰ سرطان الرِّئة، وهو داءٌ خبيثٌ يعسر علاجه، بل يتعذَّر في بعض الحالات.

«**فعلِقته**»: بكسر اللام، أحبته وعشقته.

«**فلما رأى أنه لا بد له من ذلك**»: لأنها أكرهته إكراهًا أدبيًّا يتعلَّق بسمعته وشرفه، وهو يوازي الإكراه بالضرب والتعذيب ويزيد عليه، بل ليس إكراه الملِك في القصَّة السابقة لذلك الرجل بالقتل أشد من إكراه المرأة لهذا الرجل بفضيحته.

«**فإنه و الله لا يجتمع إيمان وإدمان خمرٍ**»: في حديث آخر صحيح: «**مَن لَقِيَ اللهَ مُدْمِن خمرٍ لقيه كعابِد وَثَنٍ**».

والذي يتحصَّل من مجموع الأحاديث الصحيحة: أنَّ شارب الخمر مرةً أو

---

(١) فهو حقيقةٌ شرعيةٌ كالصَّلاة، والزَّكاة، وغيرهما من الحقائق الشرعية.

مرَّتين يعاقب من الله بأمرين:

١- يُلْعَنُ.

٢- لا تُقْبَل له صلاةٌ أربعين يومًا، فإن مات داخل الأربعين يومًا مات ميتةً جاهليَّةً.

وأنَّ مدمن الخمر يعاقب بأمرين:

١- يلقى الله كعابِدِ وثَنٍ.

٢- يسقيه الله من طينة الخَبَال، وهي عصارة أهل النَّارِ.

هذا خلاف الحدِّ الذي أوجبه الشرع في شربها وهو: أربعون جلدةً أو ثمانون، على الخلاف في ذلك بين الأئمة.

حِكَم لطيفة

يقال: إنَّ إبليس لعنه الله ظهر لفرعون في صورة رجلٍ وهو في الحمام فأنكره، فقال له إبليس: ويحك أما تعرفني؟ فقال: لا، قال: فكيف وأنت خلقتني؟! ألست القائل: أنا ربُّكم الأعلى؟!

وظهر إبليس لسليمان عليه السَّلام فسأله: أي الأعمال أحب إليك وأبغض إلى الله تعالى؟ فقال: لولا منزلتك عند الله تعالى ما أخبرتك، إني لست أعلم شيئًا أحب إلي وأبغض إلى الله تعالى من استغناء الرجل بالرجل[1] والمرأة بالمرأة.

---

(١) استغناء الرجل بالرجل: هو اللواط، واستغناء المرأة بالمرأة: هي المساحقة، ولكونهما شذوذ عن الطبيعة كانا أحب إلى إبليس.

وكان شخص يلعن إبليس كلَّ يومٍ ألف مرة، فبينما هو ذات يوم نائمٌ أتاه شخصٌ وأيقظه وقال له: قم فإن الجدار سيسقط عليك، فقال له: من أنت الذي أشفقت عليَّ هذه الشفقة؟ فقال له: أنا إبليس، فقال له: كيف هذا وأنا ألعنك كل يوم ألف مرة؟ فقال: هذا لما علمت من منزلة الشهداء عند الله تعالى، فخشيت أن تكون منهم فتنال معهم كما ينالون(١).

ويأتي السؤال: هل الاشتغال بلعن إبليس أَلْفًا أو أَلْفَين يثاب عليه؟

والجواب: ذكر الغزاليُّ: أن الإنسان لو لم يلعن إبليس طول حياته، لم يسأله الله يوم القيامة لم لم يلعن إبليس؟ وذلك لأن اللعن ليس بعبادةٍ يُتقرَّب بها إلى الله كالتسبيح والتحميد، لكنه دعاء بالإبعاد من رحمة الله، فغايته أن يكون الدعاء به على من يستحق جائزًا.

---

(١) قرأت في ترجمة عبدالله بن هلال، أحد الرواة المجروحين: أنه كان يمشي في بعض طرق البصرة، ورجل يحمل زق عسلٍ فتزحلقت رجله ووقع وسال العسل على الأرض، فجعل الصبيان الذين كانوا يلعبون في الطريق يأخذون العسل بأيديهم من الأرض ويلحسونه ويقولون: لعن الله الشيطان، فقال لهم عبدالله: لم تلعنون الشيطان وهو الذي كان السبب في أكلكم العسل بزحلقة الرجل؟ فكفوا عن لعنه، فظهر له الشيطان وقال له: حيث أنك منعت عنِّي لعن الصبيان فإني مكافئك، واتفق معه على أن يصرع بنات الأغنياء، ويذهب ابن هلال لمعالجتهنَّ، فإذا دخل على البنت المصروعة وقرأ بعض العزائم والتعاويذ تركها الشيطان وبرئت، فجمع من ذلك مالًا كثيرًا.

وقرأت في ترجمته أيضًا: أنه لما ذهب إلى الحجاز كان يجمع العقارب ويطلقها في الحرم لتلدغ المصلين والعاكفين والطائفين، وكان ابن هلال هذا يسمَّى صديق الشيطان.

١٠- أخلاق اليهود

قال وهب بن منبِّه: خرج عيسىٰ عليه السَّلام يسيح في الأرض فصحبه يهوديٌّ وكان معه رغيفان، ومع عيسىٰ رغيف، فقال له عيسىٰ: تشاركني في طعامك؟ قال اليهوديُّ: نعم، فلما علم أن ليس مع عيسىٰ إلَّا رغيفٌ واحدٌ نَدِم، فقام عيسىٰ إلىٰ الصَّلاة، فذهب صاحبه وأكل رغيفًا، فلمَّا أتمَّ عيسىٰ صلاته قدَّما طعامهما، فقال لصاحبه: أين الرغيف الآخَر؟ فقال: ما كان إلَّا رغيفٌ واحدٌ، فأكل عيسىٰ رغيفًا وصاحبه رغيفًا، ثُمَّ انطلقا.

فجاءوا إلىٰ شجرةٍ، قال عيسىٰ لصاحبه: لو أنَّا بتنا تحت هذه الشجرة حتىٰ نصبح، فقال: افعل، فباتا.

ثُمَّ أصبحا منطلقين، فلقيا أعمىٰ، فقال له: أرأيت إن أنا عالجتك حتىٰ يرد الله بصرك فهل تشكره؟ قال: نعم، فمسَّ بصره ودعا الله له فأبصر، فقال عيسىٰ لليهوديِّ: بالذي أراك الأعمىٰ يُبصِر، أما كان معك من رغيفٍ؟ فقال: والله ما كان إلَّا رغيفٌ واحدٌ، فسكت عيسىٰ عنه.

ومرَّا فإذا هما بمُقْعَد، فقال له عيسىٰ: أرأيت إن عالجتك فعافاك الله فهل تشكره؟ قال: نعم، فدعا الله تعالىٰ عيسىٰ، فإذا هو صحيحٌ قائمٌ علىٰ رجليه، فقال صاحب عيسىٰ: ما رأيت مثل هذا قَطُّ، فقال له عيسىٰ: بالذي أراك الأعمىٰ بصيرًا والمُقْعَد صحيحًا، مَن صاحب الرغيف الثالث؟ فحلف له: ما كان معه إلَّا رغيفٌ واحدٌ، فسكت عيسىٰ عنه.

فانطلقا حتىٰ انتهيا إلىٰ نهرٍ عَجَّاجٍ، فقال عيسىٰ: لا أرىٰ جسرًا ولا سفينة

فخذ بحجزتي من ورائي وضع قدمك موضع قدمي، ففعل، فمشيا على الماء، فقال له عيسى: بالذي أراك أمر الأعمى والمُقْعَد وسخَّر لك الماء، مَن صاحب الرغيف الثالث؟ فقال: لا والله ما كان إلَّا رغيفٌ واحدٌ، فسكت عيسى.

ثُمَّ انطلقا فإذا هما بظباء ترعى، فدعا عيسى بظبيٍ، فذبحه وشوى منه بعضه وأكلاه، ثُمَّ ضرب عيسى بقية الظبي وقال: قم بإذن الله عزَّ وجلَّ: فإذا الظبي يعدو، فقال اليهوديُّ: سبحان الله! فقال عيسى: بالذي أراك هذه الآية من صاحب الرغيف الثالث؟ فقال: ما كان إلَّا رغيفٌ واحدٌ.

فمرَّا بصاحب بَقَرٍ فقال عيسى: يا صاحب البَقَر، اجزر لنا من بقرك هذه عِجْلًا، فقال: ابعث صاحبك اليهوديَّ يأخذه، فانطلق اليهوديُّ فجاء به وذبحه وشواه، وصاحب البقر ينظر إليه، فقال عيسى: كل ولا تكسر عظمًا، فلما فرغا قذف بعظامه في جلده ثم ضربه بعصاه وقال له: قُمْ بإذن الله، فقام العِجْلُ وله خُوارٌ، فقال له عيسى: يا صاحب البقر خذ عجلك، قال: ويحك من أنت؟ قال: أنا عيسى بن مريم، قال: عيسى السحار؟ ثُمَّ فر منه، فقال عيسى لصاحبه: كم كان معك من رغيف؟ فقال: ما كان معي إلَّا رغيفٌ واحدٌ، فسكت عيسى.

ومضيا حتى دخلا قريةً، فنزل عيسى في أسفلها واليهوديُّ في أعلاها، فأخذ اليهوديُّ عصا عيسى وقال: أنا الآن أبرئ المرضى وأحيي الموتى. وكان مَلِك تلك القرية مريضًا مدنفًا فانطلق اليهوديُّ ونادى: من يبتغي طبيبًا؟ حتى أتى باب الملِك فأخبروه بوجعه، فقال: أدخلوني عليه فأنا أبرئه، وإن رأيتموه قد مات فأنا أحييه، فقيل له: إن وجع الملِك قد أعيا الأطباء قبلك، وليس من

طبيبٍ يداويه ولا يشفيه إلَّا صلبه، فقال: أدخلوني عليه، فأدخل عليه، فضرب الملك بعصاه فمات، فجعل يضرب الملك بالعصا وهو ميت ويقول: قم بإذن الله، فلم يقم، فأخذ ليصلب، فبلغ ذلك عيسىٰ فمرَّ عليه وقد رفع علىٰ الخشبة، فقال لهم عيسىٰ: أرأيتم لو أحْيَيْتُ لكم المِلِك هل تتركون لي صاحبي؟ قالوا: نعم، فدعا الله عزَّ وجلَّ فأحياه وقام، فأنزل اليهوديُّ من الخشبة، فقال لعيسىٰ: أنت أعظم الناس علي مِنَّة، والله لا أفارقك أبدًا.

فقال له عيسىٰ: أنشدك الله الذي أحيا الظبي والعجل بعد ما أكلناهما، وأحيا هذا بعد ما مات، وأنزلك من علىٰ هذا الجذع بعد ما صلبك، كم كان معك من رغيف؟ فحلف بهذا كله وقال: والله ما كان معي إلَّا رغيفٌ واحدٌ، فقال عيسىٰ: لا بأس.

فانطلقا حتىٰ أتيا قريةً عظيمةً وهي خربةٌ فيها كنزٌ لثلاث بنات من ذهب قد كشفتها الدواب والسِّباع، فقال الرجل لعيسىٰ: هذا المال لك؟ فقال عيسىٰ: أجل، واحدة لك، وواحدة لي، وواحدة للذي أكل الرغيف الثالث، فقال اليهوديُّ لعيسىٰ: أنا صاحب الرغيف الثالث أكلته وأنت تُصَلِّي، فقال عيسىٰ: هي لك كلها.

فانطلق عيسىٰ وتركه ينظر، وهو لا يستطيع أن يحمل منهنَّ واحدةً لثقلها عليه فقال له عيسىٰ: دَعْهُ إنَّ له أهلًا يهلكون عليه، فجعلت نفس اليهوديِّ تتطلَّع إلىٰ المال ويكره أن يعصي عيسىٰ، ويعجزه حمل المال.

فمشىٰ مع عيسىٰ فبينما هو كذلك مرَّ بالمال ثلاثة نفر يهود، فقال اثنان منهما لصاحبهما الثالث: انطلق إلىٰ بعض القرىٰ فائتنا بطعام وشرابٍ ودواب نحمل

عليها هذا المال، فلما ذهب صاحبهما قال أحدهما للآخر: هل لك أن نقتله إذا رجع ونقتسم المال بيننا؟ قال: نعم. وقال الذي ذهب -في نفسه-: اجعل لهما في الطعام سمًّا، فإذا أكلاه ماتا ويصير المال كله لي، ففعل ذلك، فلما رجع إليهما قتلاه ثُمَّ أكلا الطعام الذي جاء به فماتا.

وإن عيسىٰ عليه السلام، مرَّ بهم وهم حوله مقتولون، فقال: لا إله إلا الله، هكذا تصنع الدنيا بأهلها.

ثُمَّ إنَّ عيسىٰ دعا الله تعالىٰ فأحياهم، فاعتبروا ومروا ولم يأخذوا من المال شيئًا، فتطلعت نفس اليهوديِّ صاحب عيسىٰ إلىٰ المال فقال: أعطني المال، قال عيسىٰ: خذه لك فهو حظك في الدنيا والآخرة، فلما ذهب ليحمله خسف به في الأرض.

هذه القصة تكشف عن أخلاق اليهود الذميمة، سجَّلَها القرآن الكريم في عِدَّة آياتٍ في مناسبة كلامه عن اليهود:

١ - **قسوة القلب**: فهذا اليهوديُّ شاهَد من عيسىٰ عليه السَّلام آياتٍ يلين لها الصخر، وأصرَّ مع ذلك علىٰ الكذب وتأييده باليمين.

وقد حكىٰ الله تعالىٰ في (سورة البقرة) قصة القتيل الذي تدارءوا فيه وما أوحىٰ إلىٰ موسىٰ في شأنه، ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الآيات التي رأيتموها، ﴿فَهِىَ﴾ أي: قلوبكم في قسوتها ﴿كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ منها، ثُمَّ بيَّن زيادة قلوبهم في القسوة علىٰ الحجارة بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا

يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ ﴾ [البقرة: ٧٣-٧٤] فقسوة القلوب عريقةٌ في اليهود، لازمةٌ لهم لزوم الظل للشاخص.

٢، ٣- **الكذب، والحلف عليه:** فهذا اليهوديُّ كذب علىٰ عيسىٰ في الرغيف الذي أكله وأيد كذبه بالحلف عليه، وهو خلقٌ أصيلٌ في اليهود، فقد قال الله تعالىٰ في شأنهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٧ – ٧٨].

فالذين يكذبون علىٰ الله في كتابه، وينسبون إليه ما لم يوح به، ويحلفون علىٰ كذبهم ليحصلوا بذلك علىٰ قليلٍ من حُطَام الدنيا يهون عليهم أن يكذبوا في شيءٍ هيِّن كرغيفٍ؛ لأنهم فقدوا رادعًا من خشية الله، ووازعًا من الضمير الحيِّ، وسلوكهم مع أنبيائهم سلسلة مخالفاتٍ واعتداءاتٍ.

نجَّاهم الله من فرعون الذي أذاقهم العذاب الأليم فأغرقه، وفَرَق لهم البحر حتىٰ جاوزوه، ثُمَّ مرُّوا علىٰ قومٍ يعكفون علىٰ أصنامٍ لهم فنسوا نعمة الله عليهم و﴿ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

وذهب موسىٰ لمناجاة الله، وترك هارون خليفةً عليهم، فأضلَّهم السامريُّ

بالعِجْل الذي أخرجه لهم ﴿فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٨] ونهاهم هارون فقالوا له: ﴿لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩١].

ثُمَّ لما ذهبوا مع موسىٰ للاعتذار والتوبة من عبادة العِجْل وسمعوا كلام الله لموسىٰ قالوا: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، فأخذتهم الصاعقة جزاء جراءتهم.

وأمرهم موسىٰ بدخول الأرض المُقدَّسة التي كتب الله لهم فجبنوا عن مقاتلة الجبَّارين وقالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٤ – ٢٦].

وأتاهم موسىٰ بالتوراة فأبوا قبول أحكامها حتىٰ رفع الله الجبل فوقهم وهدَّد بإسقاطه عليهم: ﴿وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ [الأعراف: ١٧١].

وأخذ عليهم العهد بأن يُبيِّنوا أحكام التوارة وألَّا يكتموها، فنبذوا العهد وكتموا ما أرادوا كتمانه، وأخذوا علىٰ ما بيَّنوه منها أجرًا: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي

ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٥٩ – ١٦٠]

وقد حرَّم الله سبحانه وتعالىٰ عليهم مباشرة الأعمال يوم السبت وجعله لهم عيدًا يتفرَّغون فيه للعبادة، فخالفوا أمر الله، واحتالوا لصيد السمك الذي كان مُحرَّمًا صيده في ذلك اليوم بحفرهم حياضًا جانب البحر ليدخل فيها السمك مع مدِّ البحر، فإذا جزر انحسر عنه الماء فيبقىٰ السمك في تلك الحياض محبوسًا فيأخذونه ويأكلونه.

ولأجل ذلك مسخهم الله قِرَدَةً، قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٦٥–٦٦]، ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

ولم يكتفوا بهذا وبغيره من الموبقات كأكل الرِّبا، وأكل أموال الناس بالباطل، وموافقتهم علىٰ فعل المنكرات من غير أن يتحرَّك أحدٌ منهم للنهي عنها، حتىٰ غضب الله عليهم ولعنهم وضرب عليهم الذِّلَّة والمَسْكَنة فلزمتهم لزوم النعت للمنعوت، بل ترقَّوا في كفرهم إلىٰ أن رموا الله بنقائص يتنزَّه عنها؛ لأنها تنافي كماله المطلق سبحانه وتعالىٰ.

فرموه بالفقر: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ

سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [آل عمران: ١٨١-١٨٢][(١)].

ورموه بالبخل: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [المائدة: ٦٤][(٢)].

ونسبوا إليه الولد: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٠].

وقالوا: إنَّ الله خَلَقَ السموات والأرض في ستة أيامٍ، أوَّلها الأحد وآخِرها الجمعة، ثُمَّ استراح يوم السبت واستلقى على العرش، فأنزل الله ردًّا عليهم: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق: ٣٨]. اللُّغُوب: التعب.

قال الزمخشريُّ في "الكشَّاف": وقالوا -يعني العلماء-: إنَّ الذي وقع من

---

(١) لَمَّا نزل قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]. قال اليهود: الله فقير لأنه يقترض مِنَّا ونحن أغنياء نقرضه، فأنزل الله تعالى يرد عليهم بهذه الآية.

(٢) أصاب اليهود قحطٌ في زراعتهم فقالوا: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ يعنون أنه بخيل، لعنهم الله. وقوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾، هذه الجملة تثبت كرم الله المطلق على سبيل الاستعارة التمثيلية المعروفة في علم البيان.

التشبيه في هذه الأُمَّة إنما وقع من اليهود(١)، ومنهم أُخِذ.

ممَّا تقدَّم نرىٰ أنَّ القرآن الكريم يُصوِّر حياة شعب بني إسرائيل أدقَّ تصويرٍ، كاشفًا عن خَلَجَاتِ نفوسهم، مُعبِّرًا عن طباعهم ومعاملتهم لرُسُلِهم، ومعاملة بعضهم لبعضٍ.

وهذه شهادة رجلٍ منهم كان رئيسًا لهم ومن أكابر أحبارهم، قد عاشرهم ووقف علىٰ أسرارهم وعرف دخائلهم وهو: عبدالله بن سلام، فقد صارح الرسول صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم بحقيقة أمرهم، وأنهم قومٌ مُتقَلِّبون مُتلوِّنون لا يؤمنون بالحقِّ ولا يحبونه، ولا يُركن إليهم ولا يوثق بهم ولا بأقوالهم.

ثُمَّ قال: وإذا أردت أن تعرف صِدْق قولي فإليك الدليل: لقد عرفنا بعثتك ممَّا جاء في التوراة عن صفتك واسمك وزمانك، ولَمَّا علمتُ بقدومك أسلمت أنا وأهل بيتي وعمَّتي خالدة بنت الحارث، ثُمَّ كتمت إسلامي من اليهود لما أعرفه عنهم من بهتهم -أي أهل باطل- وهأنذا قد جئتك لأعلن إسلامي، وإني أريد أن تخفيني في أحد بيوتك عنهم ثُمَّ تسألهم عَنِّي حتىٰ إذا أخبروك كيف أنا فيهم خرجت إليهم وأعلنت لهم إسلامي، وسترىٰ ما يبهتوني به وما

(١) من قرأ "التلمود" وجد اليهود يصفون الله تعالىٰ فيه: بالندم والبكاء والحزن والخطأ والخطيئة واللعب والرَّقص، وأنه في بكائه يزأر كالأسد، وأنَّ جسمه كان ملء السموات والأرض في جميع الأزمان، فلما هدم الهيكل بأورشليم صار يشغل مساحة أربع سنواتٍ فقط، إلىٰ غير ذلك من الكُفْريَّات الصارخة قاتلهم الله: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر: ٦٧].

يعيبونه عليَّ.

فأخفاه الرسول صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ودعا اليهود، فسألهم عن عبدالله بن سلام، وكيف حالته فيهم؟ فأثنوا عليه خيرًا وقالوا: إنه سيِّدنا وابن سيِّدنا، وحَبْرنا وابن حَبْرنا، وعالِمنا وابن عالِمنا، فقال: «**أرأيتم إن أسلم؟**» قالوا: أعاذه الله من ذلك. فخرج عليهم عبدالله بن سلام فقال: أشهد أن لا إله إلَّا الله وأشهد أنَّ محمدًا رسول الله، يا معشر اليهود اتقوا الله وآمنوا بما جاء به محمدٌ، فوالله إنكم لتعلمون إنه لرسول الله، تجدونه مكتوبًا عندكم في التوارة باسمه وصفته، فإني أشهد أنه رسول الله وأؤمن به وأصدِّقه وأعرفه. فقالوا: كذبت، أنت شرُّنا وابن شرِّنا، ونالوا منه.

فقال: يا رسول الله ألم أخبرك أنهم قومٌ بُهتٌ؟ فأنزل الله تعالىٰ في تلك الحادثة: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [الأحقاف: ١٠][(١)].

---

(١) في "الصحيحين" عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: ما سمعت رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يقول لأحدٍ يمشي علىٰ وجه الأرض: إنه من أهل الجنَّة، إلا لعبدالله بن سلامٍ، وفيه نزل: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأحقاف: ١٠].

وروىٰ ابن أبي شيبة عن الشعبيِّ: أنه أنكر ذلك؛ لأن السورة مكِّيَّة وعبدالله أسلم بالمدينة بعد الهجرة.

وأخرج ابن أبي حاتمٍ مثله عن مسروقٍ، وهذا قول ضعيفٌ؛ لأن كثيرًا من السور المكيَّة ألحقت بها آيات مدنية، وكذلك توجد سور مدنيَّة ألحقت بها آياتٌ مكِّيَّة كما هو معروفٌ لمن درس علوم القرآن.

وقد أخرج الطبرانيُّ بسندٍ صحيحٍ عن عوف بن مالك الأشجعيِّ: أنَّ هذه الآية نزلت بالمدينة في قصَّة إسلام عبدالله بن سلامٍ.

ثُمَّ لا يخفىٰ عليك أنه من تمام إعجاز القرآن أنه توجد آية مدنية في سورة مكِّية أو آية مكية في سورة مدنية تنتظم مع آياتها في سياق متناسب كأنها نزلتا في مكانٍ واحدٍ وموضوعٍ واحدٍ.

هذا ولا يفوتني أن أشير إلىٰ بعض جهلة المعاصرين الذي اتهم عبدالله بن سلام بأنه إنما أسلم ليُفْسِد الإسلام ويثير بين أهله الدسائس، وهي تهمةٌ باطلةٌ من أساسها، يؤكِّد بطلانها أنَّ النبيَّ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم شهد له بالجنَّة، مع أنه قال عن رجلٍ أبلىٰ في غزوة أحدٍ بلاءً حسنًا: «**إنَّه مِن أهلِ النَّارِ**». فانتَحَر آخِر الأمر. وأسرَّ إلىٰ حذيفة بتعيين جماعة من المنافقين كانوا في جملة المسلمين يصلُّون معهم ويصومون ويجاهدون، فالذي أطلعه علىٰ هؤلاء، كيف لم يطلعه علىٰ حال عبدالله بن سلام حتىٰ جاء هذا الجاهل في آخِر الزمان فاكتشف لذكائه الخارق من حال صحابيٍّ ما لم يعرفه رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم؟! ألا ما أقبح الغرور مع الجهل.